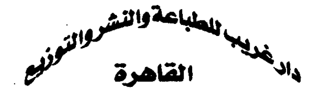
أضواء بلاغية

على جزء الذاريات

دكتور عبد القادر حسين

أستاذ ورئيس قسم البلاغة

جامعة الأزهر



القاهرة



ملحوظة :- يوجد بعض الصفحات البيضاء
وذلك من أصل المصدر
شكراً

أما بلاغته المتصلة فمنبعها طريقة تركيب ألفاظ القرآن لتصنع جملة ، وتركيب الجملة مع أختها لتقيم جملا ، وتراكيب ، ومشاهد ، وضعت عباراته بطريقة معينة ، وبأسلوب محدد ، يختلف فى موضع عن موضع ، ولكنه فى جميع المواضع يبين عن شىء غير مألوف ليس فى طوق البشر مجاراته ، أو اتباعه ، أو السير على منواله ، حتى الرسول الأعظم ، المصطفى من بين الخلق ، الذى نزل عليه القرآن ، لا تعدل أحاديثه أو رسائله أو خطبه ، أحاديث القرآن ، ولا نصوص القرآن ، ولا قصص القرآن . فكيف بكلام الناس وأحاديثهم وقصصهم؟

القرآن يتبوأ المكانة العليا السامية لأنه وحى يوحى ، ثم يأتى فى المرتبة التالية له أحاديث المصطفى سيد البلغاء ، وفى النهاية تأتى بلاغة الناس وأحاديثهم، على اختلاف فصاحتهم وبلاغتهم.

ومن ثم كان المقصد الأول فى تفسيرى لهذا الجزء من القرآن أن أعالج المناحى البلاغية فى هذه السور ، أن أبين هدفها والقصد من ورائها ، وأثرها فى المعنى سواء أكان حقيقة أم مجازا ، فيه تقديم أو تأخير فى تراكيبه ، فيه حلية لفظية أو معنوية تعكس على المعانى أثرها، فتبدو فى صورة أخرى غير الصورة التى تكون لو خلت من هذه الحلية. وما أثر الاستعارة فى التعبير القرآنى ، ولِمَ لجىء إلى أسلوب كنائى فى هذا الموضع دون موضع آخر، ولِمَ كانت هذه التورية أو الطباق ؟ . ولِمَ استعمل القصر والتخصيص هنا ولم يستعمله هناك؟. وبالجملة : ماسر التعبير البلاغى فى نظم القرآن؟، والأثر الذى أضفاه على النص بحيث صار القرآن معجزة خالدة يقف أمامه البلغاء فى دهشة وخشوع، لا يراودهم التفكير فى مجاراته ، فالقرآن فى مكان سام تتعثر المشاعر والأفكار دون أن تصل إلى مكانته وبلاغته ، وتقف القلوب والأفئدة حيرى تنظر إليه فى رهبة وخضوع ساكنة لاتريم، ولا تملك إلا الإذعان والتسليم.

لذلك آثرت أن أقوم بتفسير القرآن - أو هذا الجزء منه - تفسيراً بلاغياً ، يبين جمال القرآن وما فيه من روعة ، ولاشك أن علماء من الأفاضل الأفذاذ أخذوا على عاتقهم تفسير القرآن من وجهة نظر بلاغية ، ولكن الإنصاف يدعو أن نقول إن

تفسيرهم البلاغى لم يكن شاملاً بحيث يحتوى على كل ما فى الآية من بلاغة ، فقد كانوا يذكرون شيئاً ويتركون أشياءً ، ربما تجنباً للتكرار ، وربما لاستغراق المعانى والكشف عنها كان غايتهم ، فإذا وصلوا إليه لم يعولوا كثيرا على إظهار ما فيه من بلاغة كاملة . لهذا وغيره لجأت إلى اختيار هذا الهدف البلاغى فى التفسير دون غيره ، ولما كان الهدف البلاغى لا يتضح إلا بعد ذكر المعانى أولا ، كان لزاما علىّ أن أبين معانى الألفاظ اللغوية ، وما يحتمله المعنى فى الآية ، وبيان المعنى إجمالا ، ليكون تمهيداً للكشف عن النواحى البلاغية ، فكان هذا هو الهدف ، وهو القصد من هذا الكتاب ، والله أسأل أن يوفقنى إلى بلوغ هذا المرام.

أ. د / عبد القادر حسين

مدينة نصر





وانتقل السياق إلى قسم آخر ، فأقسم بالسماء ذات النجوم اللامعة بأن أقوال الكافرين فى الرسول متضاربة مختلفة ، فقالوا إنه ساحر وشاعر ومجنون ، وفى القرآن إنه سحر وشعر وأساطير، يريدون بذلك صرف الناس عن الرسول وعن الرسالة ، فلعنهم الله ووصفهم باللعنة والهلاك ، وأنهم منغمسون فى جهالاتهم ، غافلون عما أمروا به من الطاعة والإيمان . ولكنهم يتساءلون ساخرين مستبعدين ليوم الجزاء ويوم البعث ، فيقولون متى يوم الجزاء ؟ فيرد عليهم القرآن بأنه اليوم الذى يحرقون فيه ويعذبون ، وكما سخروا من وقوع هذا اليوم ، سخر الله منهم فتقول لهم خزنة جهنم : ذوقوا عذابكم وفتنتكم وإحراقكم بالنار التى كنتم تستعجلونها مستبعدين لوقوعها ، ساخرين من عذابها.

وينتقل من حال الكافرين المستهزئين وما يلاقونه من عذاب الآخرة ، إلى حال المؤمنين المتقين ، فهم فى رخاء من جنات وأنهار تقع عليها أبصارهم فتنشرح نفوسهم جزاء على أعمالهم فى الدنيا ، فقد أحسنوا العمل ، فأجزل الله لهم الثواب، فكانوا لا يستغرقون فى النوم إلا قليلا ، وبقية أوقاتهم ينفقونها فى العبادة، وخاصة فى الأوقات التى يصعب على الإنسان أن يكون فيها متيقظا ، كوقت السحر قبيل الفجر ، فهم يحيون الليل فى تهجد واستغفار ويعطون حق الله فى أموالهم لمن يسألهم العطاء أو يعرض بحاجته ، فالمال مال الله ، وعليهم أن ينفقوه فى سبيل الله وسد حاجة الفقراء والمعوزين.

ثم يلتفت القرآن إلى آيات فى الكون وفى النفس تدل على قدرة الله الباهرة. ففى الأرض آيات تدل على قدرة الصانع : فيها السهول والجبال والهضاب والوديان، وفيها العيون والمعادن والدواب. وفى النفس آيات من عجائب الخلق : من القلب والعقل واللسان والنطق ، والأسماع والأبصار والأطراف وسائر الجوارح، فاعتبروا يا أصحاب العقول والقلوب.

ثم ينتقل القرآن إلى المصدر الأول فى الأرزاق وهو السماء، فمنها تنزل الأمطار، ومن الأمطار ينمو النبات، وتنتشر الأرزاق، وكل ذلك مدون مكتوب فى السماء، والله يقسم بأن الأرزاق حق للعباد على الله، لا ينبغى للبشر أن يتشكك فيها كما لا يتشكك فى نطقه وفى كلامه.

ونرى بعد ذلك أن القرآن يتحول إلى قصص الأنبياء ، وأخذ العبرة منها.

ذكر قصة ضيف إبراهيم الخليل من الملائكة، وأنهم دخلوا عليه متنكرين، إلا أن إبراهيم أكرمهم كما ينبغى للضيف أن يُكرم، بأن يقدم إليه المضيف أجود ماعنده وهو ما فعله إبراهيم حين جاء بعجل سمين، فلما لم يتناولوا طعامهم بدأ الشك يتسرب إلى قلب إبراهيم ويشعر بالخوف ، لأن من لم يأكل طعامك لم يرع ذمامك، ولكنهم طمأنوه، وبشروه بإسحاق، فتعجبت زوجه وضربت بأصابعها على جبهتها لأنها كانت عجوزاً قد تجاوزت سن الولادة، ولكن حكمة الله فوق كل شىء، ولما علم إبراهيم أنهم ملائكة الله، سألهم ما شأنكم، وفيم أرسلتم؟ قالوا إنا أرسلنا إلى قوم لوط، وهم قوم مجرمون أسرفوا على أنفسهم ، وخرجوا من الحلال إلى الحرام ، فهم يستحقون الهلاك وتدمير قراهم إلا من آمن منهم ولم يرتكب الفسق والفجور، وكان ذلك مؤشراً لإلقاء الخوف ونزع الأمن من القلوب التى تعصى الله.

وآية أخرى لمن يعتبر ويتعظ ، حين أرسل الله موسى إلى فرعون فكذبه، واتهمه بالسحر والجنون ، فأغرقه الله ومن معه فى البحر.

وكذلك فعل مع عاد قوم هود حين كذبوا رسولهم فأهلكهم بالريح، وهى ريح لافائدة فيها إذهى عقيم، فجعلتهم كالرميم، كالعظام الهشة التى تتفتت لأوهى الأسباب، بل بمجرد لمسها.

وكذلك الهلاك فعله مع قوم صالح حين استعصوا عليه ولم يمتثلوا له، فأهلكهم الله بالصواعق ، ولم يستطيعوا أن يمتنعوا عن الهلاك وقوم نوح أهلكهم الله بالطوفان قبل هلاك هؤلاء الأقوام؛ لأنهم كانوا قوما ضالين مضلِّين ، فاسقين كافرين.

وانتقل القرآن بعد ذلك من آيات الخليقة والرسل، إلى آيات الكون والسماء والأرض.

فالسماء بنيت بقدرتنا ووسَّعنا بينها وبين الأرض، التى بسطناها ومهدناها لكل شىء من الحيوان والإنسان والنبات كما ترى الأزدواج والانطباق بين كل الكائنات أزواجا أزواجا. فالذكر والأنثى، والليل والنهار ، والشمس و القمر، والأرض والسماء ، والبر والبحر ، والموت والحياة، فكل شىء له شبيه أو نظير، ليتذكر البشر ويعرفوا الخالق ويعبدوه. فعليكم أن تفروا إلى الخالق، إلى الإيمان بالله





والحكمة فى معنى القسم من الله تعالى رغم أن المؤمن صادق بمجرد الإخبار من غير قسم، وأيضاً رغم أن الكافر لا يفيده القسم لإصراره وإنكاره.

قلنا : إن القرآن جاد بلغة العرب، ومن عادتها القسم إذا أرادت أن تؤكد أمرا، وقد أراد الله أن يؤكد كلامه، وبأكثر من أداة تأكيد نظراً لشدة إنكارهم البعث والجزاء.

﴿ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُكِ (٧) ﴾ المراد بالحبك : الطرق المحسوسة التى هى مسار الكواكب، أو الطرق المعقولة التى يسلكها النظار ويتوصل بها إلى المعارف.

﴿ إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ ﴾ أى إنكم يا أهل مكة - فى القرآن - فى قول متخالف متناقض ، فكانوا يقولون إنه شعر وسحر وافتراء وأساطير الأولين، وفى الرسول شاعر وساحر ومفتر ومجنون، وفى القيامة منهم من يقطع القول بإنكار، ومنهم من يقول إن نظن إلا ظناً ، والتعبير هنا بالتوكيد رداً على إنكارهم للقرآن ورسالة الرسول والبعث.

﴿ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ (٩) ﴾ يؤفك : يصرف عن رأيه ، بقلب كلامه أو تغييره، ورجل مأفوك : مصروف عن الحق إلى الباطل، أى يصرف عن القرآن أو الرسول، فيقف منه موقف الإنكار أو العناد، إذ لا صرف أفظع منه وأشد، وأى صرف آخر لايعدّ شيئاً بالنسبة لصرفه عن القرآن أو بعده عن الرسول.

و ﴿ مَنْ ﴾ فى قوله ﴿ مَنْ أُفِكَ ﴾ تفيد العموم، حتى تشمل كل من وصف بهذه الحقيقة وصرف عن الرسالة. وعبر بالموصولية ﴿ مَنْ ﴾ لتفيد شدة هذا الصرف وكماله، إذ أى صرف آخر لا شىء بالقياس إليه.

﴿ قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ (١٠) الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ سَاهُونَ (١١) ﴾ « قتل الخراصون » دعاء عليهم كقوله ﴿ قُتِلَ الإِنسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ﴾ « عبس ١٧ ».

وأصله الدعاء بالقتل والهلاك، ثم جرى مجرى اللعن والقبح. والخرص: كل قول يقال عن ظن وتخمين، يقال للشخص : خرص ، سواء أكان كلامه مطابقاً للواقع أو مخالفاً له من حيث إن صاحبه لم يقله عن علم ولا غلبة ظن؛ بل اعتمد فيه الظن والتخمين.

فالخراصون : الكذابون ، وهم أصحاب الأقوال المختلفة ، فاللام فى (الخراصون) للعهد إشارة إليهم.

ثم وصفهم بأنهم « فى غمرة » من الجهل والضلال تغشاهم وتغمرهم عن أمور الآخرة ، والغمرة جعلت مثلاً للجهالة التى تغمر صاحبها، ووصفهم أيضاً بأنهم «ساهون» أى غافلون عما أمروا به، والسهو دون الغفلة ، والغفلة دون الغمرة، فالغمرة أعلاها وأشدها، أى أنهم فى أشد حالات الغفلة التى لا شىء فوقها، فكأنهم تلبسوا بها فغطت على قلوبهم وأحاطت بجسومهم .

﴿ يَسْأَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ (١٢) ﴾ أى يسألون ويستخبرون من موعد يوم القيامة والجزاء، فالكافرون لا يسألون حقيقة، ولكن يسألون استهزاء واستعجالا لهذا اليوم، فالسؤال هنا خرج عن معناه الحقيقى إلى معنى آخر مجازى، ولذلك أجابهم الله سبحانه بقوله ﴿ يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (١٣) ﴾ أى يقع يومهم على النار يحرقون ويعذبون بها كما يفتن الذهب بالنار حتى يذهب خبثه وتظهر خلاصته، والكافر كله خبث فيحرق كله ، فالتشبيه ضمنىّ.

﴿ ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (١٤) ﴾ يقول خزنة النار للكافرين: ذوقوا جزاء فتنتكم ، أى ذوقوا العذاب، وأصل الفتن : إدخال الذهب النار ليظهر جودته من رداءته، ويستعمل فى إدخال الإنسان النار ، وذوقوا فتنتكم: أى عذابكم، والفتنة سبب العذاب. و ﴿ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ﴾ فهذا إشارة إلى ما فى الفتنة من معنى العذاب، أى هذا هو العذاب الذى كنتم تستعجلونه فى حياتكم ، وتقولون متى هذا الوعد بطريق التهكم والاستهزاء.

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (١٥) ﴾ أى المتقين عن الفكر والمعصية، والميل إلى ما سوى الله وشريعته، بل المتصفين بالطاعة والمعرفة والتوجه إلى ذات العلىّ القدير، هؤلاء ماكثون فى بساتين لا يعرف كنهها، فتنكير جنات للتعظيم والتكثير، أى جنات عظيمة كثيرة، والعرب تسمى النخيل جنة، وفى عيون ، أى أنهار جارية أى يرونها وتقع عليها أبصارهم، والتعبير بهذا المعنى يكون حقيقيا ، ولذلك فهم ليسوا فى هذه الأنهار، وقد يكون التعبير مجازياً إذا قيل إنهم يتقلبون فى هذه الأنهار





السماء سبب فى الحصول على الرزق، فمنها ينزل المطر فتنمو النباتات للإنسان والأنعام، وكذلك فإن كل ما توعدون به من الخير والشر، والثواب والعقاب، والشدة والرضاء ، وغيرها مكتوب مقدر فى السماء.

وقدم « فى السماء » لإفادة الاختصاص ، حيث إن الرزق مكفول فى السماء مقدر فيها، وليس على الأرض.

﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ (٢٣) ﴾ أقسم الله بنفسه، وذكر لفظ الرب ، لتربية المهابة والتعظيم لشأنه تعالى، فقد أقسم الله معظماً نفسه لكونه رب السماوات ورب الأرض إن ما توعدونه من الرزق حق ولن يتغير ولن يمنع، مثل ما ترون وتسمعون نطقكم ، فكما لا يوجد شك فى أنكم تنطقون، فينبغى ألا تشكوا فيما كتب الله لكم، فهو حقيق بأن ينفذ ، واختص التمثيل بالنطق؛ لأنه مخصوص بالإنسان ، فهو أخص صفاته التى لا يشترك فيها مع الحيوان.

يقول الحسن رضى الله عنه : بلغنى أن رسول الله «صلى الله عليه وسلم» قال: «قاتل الله أقواماً أقسم الله لهم بنفسه فلم يصدقوه ».

وفى الآية دليل للتوكل على الله، وحث على طلب الحوائج منه، ولو كان ثمة شك فى ذلك، لما أحالهم على السماء ولا على الأرض. وبين السماء والأرض طباق بالتضاد ، وفائدته الشمول أى أنه رب جميع الكائنات على اختلافها وتناقضها.

﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (٢٤) ﴾ الاستفهام هنا جاء لتفخيم شأن الحديث، فهو استفهام فيه معنى التعجب والتشويق إلى استماعه، وفى ذلك دلالة على أن هذا الحديث لم يعرفه الرسول إلا عن طريق الوحي؟ إذ الرسول أمّىّ لم يمارس الكتابة ولا القراءة ولم يصاحب أصحاب الكهانة ، ففيه إذن إثبات نبوته.

والضيف مفرد أضياف وضيوف وضيفان، والضيف من مال إليك، ورغب فيك، ونزل بك، وكان عدد الضيوف فى هذه الآية اثنى عشر ملكا، منهم جبرائيل، وميكائيل . وسماهم ضيفاً؛ لأنهم كانوا فى صورة الضيف، حيث إن إبراهيم قام على ضيافتهم ، أو لأنه حسبهم ضيوفاً.

ووصفهم بأنهم مكرمون عند الله بالاصطفاء، والسفارة بين الأنبياء، أو

مكرمون عند إبراهيم بالخدمة، حيث خدمهم بنفسه وبزوجه ، وبطلاقة الوجه وتعجيل الطعام.

وقيل : إكرام الضيف أن تلقاه بطلاقة وجه وتعجل له القرى - أى الطعام- وأن تقوم بنفسك على خدمته، ولا عار للرجل ولو كان سلطاناً أن يخدم ضيفه وأباه ومعلّمه.

وفى الحديث : « من آمن بالله وباليوم الآخر فليكرم ضيفه ».

﴿ إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلامًا قَالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ (٢٥) ﴾ أى : أتاك حديثهم حين دخولهم عليه مسلمين حيث لم يخلّوا بأدب الدخول بل جعلوا السلام عقب دخولهم مباشرة، فرد إبراهيم عليهم السلام بالسلام، ليس ثمة فاصل بين سلامهم عليه، ورد سلامه عليهم ، فكأن قائلاً سأل، وماذا قال إبراهيم فى جوابهم قال سلام. أى حياهم بتحية أحسن من تحيتهم ، لأنهم حيّوه بالجملة الفعلية التى تدل على التجدد والحدوث (فقالوا سلاما) أى نسلم عليك سلاماً. ولكن إبراهيم حياهم بالجملة الإسمية (قال: سلام) وهى تدل على الاستمرار والثبوت ، فالجملة الإسمية أبلغ من التعبير بالجملة الفعلية. وهكذا شأن القرآن يعلمنا أصول التربية، وأن يلاقى المضيف ضيفه بأحب شىء لديه حتى يبث الراحة والثقة فى نفسه.

﴿ قَوْمٌ مُّنكَرُونَ ﴾ أى قال إبراهيم فى نفسه من غير أن يشعرهم بذلك ، هؤلاء قوم لا نعرفهم، فهم منكرون عند كل حد، فقد كانوا على أشكال خلاف ما عليه الناس. يقول بعض المفسرين: أنكر على ضيوفه السلام؛ لأن السلام فى ذلك الوقت لم يكن تحيتهم ، وقد كان إبراهيم بين قوم كافرين لا يحيى بعضهم بعضا بالسلام الذى هو تحية المسلمين.

﴿ فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (٢٦) ﴾ فراغ إلى أهله : ذهب إليهم على خفية من ضيفه، فإن من أدب المضيف أن يبادر بالقرى من غير أن يشعر به الضيف، حذراً من أن يكفّه الضيف ويعذره (فجاء بعجل سمين) العجل : ولد البقرة : أى ذبح لهم عجلاً سميناً لم يقصد بعينه فجاء منكراً.

اذ أن عامة ماله من البقر، واختار السمين مبالغة فى إكرامهم.

﴿ فَأَخْرَجْنَا مَن كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٣٥) ﴾ فباشرت الملائكة ما أمرت به ، وقوله (فأخرجنا) من إخبار الله، وليس بقول جبريل، إنه أنقذ المؤمنين من الهلاك قبل أن يدمر هذه القرى.

وعددها خمس كما جاء فى بعض التفاسير ، ولشهرة هذه القرى لم ينص عليها ، وإنما اكتفى بذكر ضميرها فقال « من كان فيها » ممن آمن بلوط .

﴿ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ (٣٦) ﴾ فما وجدنا فى هذه القرى غير أهل بيت، فعبر بالبيت وأراد أهله مجازا، وهم لوط ، وابنتاه وامرأته الكافرة، وقيل : كان لوط وأهل بيته الذين نجوا ثلاثة عشر ذكر فى هذه الآية لفظة « المسلمين » وفى الآية التى قبلها لفظة « المؤمنين » والمسلم أعم من المؤمن، فكل مؤمن مسلم ولا عكس ، والإيمان هو التصديق بالقلب ، والإسلام هو الخضوع والانقياد.

﴿ وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِّلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الْأَلِيمَ (٣٧) ﴾ وتركنا فى هذه القرى علامة تشير إلى ماأصابهم من العذاب، وهذه العلامة هى تلك الحجارة، أو ماء أسود نتن خرج من أرضهم، ونكر لفظة «آية» للتعظيم ، أى تركنا آية عظيمة لا يمكن تجاهلها أو انكارها، لمن كان شأنه أن يخاف ويتجنب غضب الله؛ لسلامة فطرته، ورقة قلبه دون من عداه من ذوى القلوب القاسية المظلمة، فإنهم لا يعتدون بها، ولايعدونها آية، ووصف العذاب بصيغة المبالغة « أليم » أى بلغ الغاية فى الإيلام.

﴿ وَفِي مُوسَىٰ إِذْ أَرْسَلْنَاهُ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٣٨) ﴾ ففى هذه القصص التى سردها القرآن للنبى عليه السلام، قصص إبراهيم ولوط وموسى، ذكرها تسلية للنبى محمد، ووعدا له بإهلاك أعدائه المسرفين فى ادعاءاتهم كما أهلك قوم لوط، وغرق فرعون وإنجاء موسى عليه السلام، ففى هلاك قوم لوط آية، وفى غرق فرعون وآله آية، وفرعون هو ملك مصر، وقد أرسل الله إليه موسى بما ظهر على يديه من المعجزات الباهرة كالعصا واليد البيضاء وغيرهما، فالسلطان المبين كناية عن المعجزات البينة الواضحة التى لا تقبل إنكاراً ولا جدلا. وقال « وفى موسى » والمراد قصة موسى ، وعبر بالمجاز لما بينهما من الملاصقة.

﴿ فَتَوَلَّىٰ بِرُكْنِهِ وَقَالَ سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٣٩) ﴾ تولى بركنه، كناية عن كونه أعرض عن الإيمان بموسى، فالتولى هو الإعراض ، أو معنى تولى بركنه: لاذ بجنده وتقوى

به، فإن الركن اسم لما يركن إليه الإنسان من مال وجند وقوة، فركنه مجاز عن الجنود تشبيهاً لهم بالركن الذى يتقوى به البنيان، ثم قال عن موسى : إنه صاحب سحر، وذو جنون، والجنون هو زوال العقل وفساده، كأنه نسب ما ظهر على يديه من الخوارق العجيبة إلى الجن.

ونكّر ساحر ومجنون لبيان احتقاره لما ظهر على يد موسى من سحر أو جنون. والفرق بين المجنون والمجذوب، أن المجذوب ذهل عقله لما شاهد من قدرة الله تعالى ، فعقله مخبوء، وليس زائلاً ، فهو صاحب عقل بلا عقل ، بخلاف المجنون فقد ذهب عقله بلا رجعة، وانتفى عنه التعقل والتفكر.

﴿ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ (٤٠) ﴾ النبذ : طرح الشىء وإلقاؤه لقلة الاعتداد به، أى طرحناهم فى البحر مع كثرتهم كما يطرح الحصى من الكف لايبالى بشأنها، فاستعار النبذ للإلقاء والطرح، وعبر بلفظة النبذ لما فيها من دلالة على شدة الاحتقار والإهمال، وفرعون ملام بما أتى به من إنكار لرسالة موسى، وكل صاحب ذنب ملوم على قدر ذنبه صغيرا أو كبيراً، وعرف اليمّ » لأن القصد إلى تعيينه كما هو معروف لديهم.

﴿ وَفِي عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (٤١) ﴾ وعاد : هم قوم هود ، أى وفى قوم هود آيات وعبرة لمن يعتبر ويتعظ، فقد أرسلنا عليهم وعلى دورهم وأموالهم وأنعامهم تبعاً لهم ريحاً عقيما، وقد وصفها بالعقم لأنها أهلكتهم وقطعت دابرهم، فقد شبه إهلاكهم وقطع دابرهم بالنساء العقم اللاتى لا يلدن ولا يكن لهن عقب، وقد وصفت الريح بهذا الوصف، لأنها لم تحمل خيراً من إنشاء مطر، أو إلقاح شجر، أو إخراج ثمر ، فهى عديمة النفع كالمرأة التى لا تنجب. وسمى الرياح عقيما، لأنها كانت سبباً لقطع الأرحام وبعدها عن الولادة، فهى ريح هلاك وعذاب، وليست ريح خير ونفع.

﴿ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (٤٢) ﴾ أى : ما تترك من شىء تجرى عليه سواء كان من أنفسهم أو دورهم أو أموالهم أو أنعامهم إلا جعلته كالشىء البالى المفتت وفى القاموس: رمّ العظم يرمّ فهو رميم. وفى الآية قصر أداته النفى والاستثناء، أى جعلته مفتتا ولا شىء أقل من ذلك.



﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥٠) ﴾ فهذا شأن الله من بناء السماء وفرش الأرض وخلق الزوجين المختلفين ، فقل لهم يا محمد إذا كانت هذه قدرة الله، فاهربوا إليه ولوذوا إلى قدرته بالإيمان والطاعة كى تفلتوا من عقابه، وتنجوا من عذابه، وتفوزوا بثوابه، فأنا لكم نذير من قبل الله، مظهر لثوابه وعقابه، وفى الآية إشارة إلى وعده الكريم لهم بالنجاة والثواب إذا فروا إليه. « ونذير مبين » صفة مبالغة للإنذار، وللبيان، فهو إنذار واضح بين لا لبس فيه ولا خفاء.

﴿ وَلا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُم مِّنْهُ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٥١) ﴾ وكما أمركم بالفرار إليه، أمركم أيضاً بالفرار من الشرك بالله بأن تجعلوا معه إلهاً آخر، و (إنى لكم منه نذير مبين) تأكيد لوجوب الفرار إلى الله بالبعد عن أسبابه.

﴿ كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلاَّ قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٥٢) ﴾ أى أن موقف المشركين من العرب منك يا محمد كموقف الأسلاف من رسلهم ، فما من رسول أرسل إليهم إلا قالوا عنه ساحر أو مجنون ، فلا تأس يا محمد على تكذيب قومك لك، فهذا شأنهم وتلك طبيعتهم مع كل مرسل.

﴿ أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٥٣) ﴾ أى هل أوصى الأولون الآخرين بعضهم بعضا بأن رسلهم سحرة مجانين، واتفقوا على هذا القول ؟ أليس ذلك مما يدعو إلى الإنكار والتعجب من أحوالهم، وإجماعهم على تفرق أزمانهم على تلك الكلمات الشنيعة التى رموا بها أنبياءهم؟ ثم أضرب عن اتفاقهم على الشر بما هو أقوى وأشد من ذلك بإثبات الطغيان لهم، الطغيان الشامل للجميع الذى ثبت بمعاملتهم للرسل. فتدرج من التواصى على زعمهم بإلصاق صفة السحر والجنون للأنبياء والرسل رغم اختلاف أزمنتهم إلى ما هو أعلى فى اقتراف الذنب بطغيانهم ومجاوزتهم لكل الحدود والأعراف.

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنتَ بِمَلُومٍ (٥٤) ﴾ أى : أعرض عن جدالهم يا محمد ، فقد كررت عليهم الدعوة ولم يستجيبوا لك بل أبوا كل الإباء عناداً واستكبارا. فإن أعرضت عنهم بعد ما بذلت من مجهود ، وجاوزت فى الإبلاغ كل معهود، فلا تثريب عليك وما أنت بملوم، فإنك لا تهدى من أحببت ولكن الله يهدى من يشاء ، والباء فى « بملوم » زائدة للتوكيد بأنه غير ملوم.

﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (٥٥) ﴾ أى ذكرهم وعظهم، وبين لهم دعوتك، وبلغهم رسالتك ، فإنك بذلك تزيدهم بصيرة وقوة فى اليقين، وليس ثمة تعارض بين قوله (فتولّ عنهم) فى الآية السابقة، وبين (وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين) أى تولّ عنهم إذا أعرضوا وليس عليك هداهم، ولكن عليك دعوتهم وموعظتهم، فبلغ ما أمرت به، فإن أعرضوا فأعرض عنهم.

﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦) ﴾ العبادة أبلغ من العبودية ، لأن العبودية إظهار للتذلل، والعبادة غاية التذلل ، ولا يدركها كل أحد، بل من يكون فى غاية الانقياد والطاعة لله ولرسوله.

وقدم الجن على الإنس فى الآية ، لتقدمه على خلق الإنس فى الوجود، ومعنى خلقهم لعبادته، أى خلقهم مستعدين لها أتم استعداد، ومتمكنين منها أكمل تمكين، مع كونها مطلوبة منهم . فاللام فى (ليعبدون) لم تستعمل فى حقيقتها فالعبادة ليست هى العلة الحقيقية فى الخلق، وليست هى الباعث له، بحيث إذا لم يفعل ذلك لأفضى إلى استكماله بفعل، وهو الكامل من كل وجه .

ولذلك نرى فى الآية تشبيه العبادة بالعلة الحقيقية للخلق وهى الاستعداد للعبادة أتم استعداد ، كقوله تعالى ﴿ فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا ﴾ القصص ٨، فآل فرعون لم يتلقطوا موسى عليه السلام ليكون لهم عدوا، بل ليكون لهم ابنا وصديقا.

﴿ مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (٥٧) ﴾ أى : ما أريد من الجن والإنس فى وقت من الأوقات من رزق لى ولا لأنفسهم ، ولا لغيرهم يحصلونه بكسبهم، وما أريد أن يطعمون ، ولا لأنفسهم ولا غيرهم، وما أريد أن أصرفهم فى تحصيل رزقى ولا رزقهم ولا فى تهيئته ، بل أتفضل عليهم برزقهم وبما يصلحهم من عندى ، فيشتغلون بما خلقوا له من عبادتى.

وفى الآية تعريض بأصنامهم، فإنهم كانوا يحضرون لها المآكل، فربما أكلتها الكلاب ثم بالت على الأصنام ، ثم لا يصدهم ذلك عن عبادتها.

« من رزق » مطلق الرزق سواء أكان كثيراً أم قليلاً، فالتنكير هنا لإفادة التقليل، أى حتى الرزق القليل لا أطلبه منهم.





الدنيا، وهى أمامهم يشيرون إليها، وتتهكم عليهم الملائكة، أهذا سحر أم أنتم عمى لا تبصرون هذه جهنم اصطلوا بنارها أيها الكفرة، ولا ينفعكم الصبر عليها ولا على حرها ، فهذا جزاؤكم بقدر ما تستحقون من أعمالكم.

ثم ينتقل القرآن إلى صورة أخرى، ضد الصورة الأولى ، وهى صورة المؤمنين المتقين، فهم فى نعيم يتلذذون بصنوف الخيرات، ويجنبهم الله ألوان العذاب، ويذكر مشاهد للترفه والنعيم الذى ينعمون فيه، يأكلون هنيئا، ويشربون مريئا، ويتكئون على أسرّة مصفوفة موصول بعضها ببعض، مقترنين بالجميلات من النساء، الموصوفين بأجل الصفات، والمتعة ليست مقصورة عليهم ، بل يتبعهم فى هذه المتع أولادهم وذريتهم ، حتى لا ينقصهم البعد عنهم، فعملنا على أن نلحقهم بآبائهم، واستدرك القرآن حتى لا يظن أحد أن رفاهية الأولاد تنقص من ثواب الآباء، فما التناهم من عملهم من شىء، فكل امرئ يجازى بقدر عمله، ومن النعيم الذى يرونه فى الآخرة، الفاكهة الحلوة، واللحم المشتهى، والخمر التى لا تورث صداعاً كخمر الدنيا، فليس فى شربها باطل ولا إثم، وغلمان لهم فى صفاء اللؤلؤ يطوفون عليهم بأكواب الماء والخمر، هذه النعم التى لا آخر لها بسبب رقة قلوبهم من خشية الله، فمنَّ الله عليهم بالرحمة والجنة ووقاهم لفح الريح الحارة التى تمزق الجلود، فمنحهم من فضله وإحسانه ورحمته.

فاثبت يا محمد على تذكير الناس برسالتك وعظهم، فأنت نبى راجح العقل، لست بكاهن كما زعموا، ولست بمجنون كما ادعوا، ولست شاعراً ينتظرون لك الهلاك. فالشاعر عظيم الإحساس والشعور، راجح العقل والتفكير، بينما المجنون مختّل المشاعر، فاقد العقل، فاتهموك بالمتناقضات التى لا يسلم بعضها مع بعض، وأنت برئ من هذه وتلك، فهم قوم طاغون تجاوزوا الحد فيما ذهبوا إليه، واسترسلوا فى أكاذيبهم وافتراءاتهم ، فقالوا إن محمداً تقولَّ القرآن واختلقه اختلاقاً، زعموا ذلك عناداً واستكباراً مع علمهم ببطلان مزاعمهم ، فإن كانوا صادقين فليأتوا بمثل القرآن، ويشتد القرآن فى التهكم عليهم والنيل منهم فغاص فى طيات نفوسهم ، فهل خلقوا دون خالق ، أم هم الذين خلقوا أنفسهم، فلا يعبدون الخالق، ثم يعلو القرآن فى درجة تهكمه عليهم: هل خلقتم السماوات والأرض؟ ولو تدبرتم لعلمتم أن خالقكم وخالق الكون هو الله الأحد، أم لديهم خزائن كل شىء : النبوة والرزق، وغيرهما، أم

هم الأرباب المسيطرون على كل شىء المدبرون لكل حى. أم نصبوا سلما صعدوا عليه إلى السماء يتصنتون فيه كلام الملائكة ، ويعلمون منه هلاك محمد قبل هلاكهم، غاية فى الإقذاع والتندر بأحوالهم.

ثم سفه أحلامهم حيث اختاروا له البنات ولأنفسهم البنين، اختاروا لله ما يكرهون ، ولأنفسهم ما يحبون .

أم أنك يا محمد تسألهم أجرا على تبليغك الرسالة فثقل عليهم الدين. أم عندهم اللوح المحفوظ يكتبون فيه ما يبتغون، من إنكار البعث، والعذاب فى الآخرة.

لقد أرادوا بك الكيد فى دار الندوة يا نبى الله ولكن كيدهم ارتد إلى نحورهم، وحاق بهم مكرهم فقتلوا يوم بدر.

أم لهم إله غير الله يحميهم من العذاب، حتى إنهم إذا رأوا دلالة العذاب، قالوا هذا مجرد سحاب متراكم ، ولم يصدقوا أنه عذاب ساقط من السماء دعهم يا محمد فى تخرصاتهم وأوهامهم فلن تغنى عنهم شيئاً، وسوف يصعقون عند النفخة الأولى وإن كانوا لا يؤمنون بذلك، أما أنت يا رسول الله فإنك فى حفظنا ورعايتنا نحفظك ونكلؤك، وما عليك إلا أن تسبحّ الله حين تقوم للصلاة: نهارك وليلك، وحين تدبر النجوم عند آخر الليل، وقت صلاة الفجر.



﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا ⑬ ﴾ الدعّ : الدفع الشديد، أى يدفعون إلى النار دفعاً شديداً عنيفاً بأن تغل أيديهم إلى أعناقهم ، وتجمع نواصيهم إلى أقدامهم فيدفعون إلى النار دفعاً على وجوههم وفى أقفيتهم حتى يدخلوها.

وعبر بكلمة يدعّون ، ودعا بدلاً من يدفعون دفعا، لما فى الدع من العنف والشدة التى لا تتوافر فى كلمة الدفع.

﴿ هَٰذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنتُم بِهَا تُكَذِّبُونَ ⑭ ﴾ أى يقال لهم من قبل خزنة النار: هذه النار التى كنتم فى الدنيا بها تكذبون الوحى الناطق بها، فوبخهم الله على هذا القول وقرعهم قائلاً لهم :

﴿ أَفَسِحْرٌ هَٰذَا أَمْ أَنتُمْ لَا تُبْصِرُونَ ⑮ ﴾ فالاستفهام هنا للتوبيخ حيث كانوا يسمون القرآن سحرا، وقدم الخبر (أفسحر) ؛ لأنه محط الإنكار، ومدار التوبيخ ، أراد أن ينكر عليهم قولهم هذا ، ويؤكد لهم أن الذى ترونه من عذاب النار حق، أم أنتم عمّى سدت أبصاركم كما سدت فى الدنيا على زعمكم حيث كنتم تقولون: إنما سكرت أبصارنا، بل نحن قوم مسحورون .

﴿ اصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ⑯ ﴾ «اصلوها » ادخلوها وقاسوا حرها وعذابها، وافعلوا ما شئتم من الصبر وعدمه فلا خلاص لكم منها، يريد أن يقطع عليهم رجاءهم فى النجاة، فسواء عليكم الأمران أجزعتم أم صبرتم فى عدم النفع، حيث لا يدفع العذاب ولا يخفف، إذ يكون الصبر حين ينفع، وذلك فى الدنيا، فمن صبر على الطاعات فى الدنيا لم يجزع فى الآخرة، إذ الصبر وإن كان مرّاً، لكن آخره حلو، إنما تجزون ما كنتم تعملون فى الدنيا من الخير والشر، لا الذى تعملون فى الآخرة من الصبر والخضوع، والتضرع والدعاء فإنه لا ينفع شىء منها، وعبر بإنما لتفيد التخصيص إذ المعنى تجزون ما تعملون ، أما الذى لا تقترفونه ولا تعملونه فلا تجزون عقابه أو ثوابه.

﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ ⑰ ﴾ وبعد أن ذكر كفر الكافرين وأن جهنم هى جزاؤهم ، شرع فى ذكر المؤمنين المتقين الذين ينأون عن الكفر والمعاصي، وأنهم فى جنات تتسم بالخفض والدعة والتنعم والترفه.

والنعيم : النعمة الكثيرة ، وتنعم تناول ما فيها من نعمة وطيب عيش.

والتنوين فى « جنات ونعيم » مخصوص للمتقين تميزا عن العصاة والمنحرفين فيكون التنوين للتنويع، والنعيم منه ما هو حسى وما هو معنوى، وفى لاتدخل على النعيم المعنوى إلا على سبيل المجاز، وإنما تدخل على الأشياء المحسوسة على سبيل الحقيقة تقول : رجل فى محنة مجازا، وتقول رجل فى غرفة الانتظار حقيقة، أراد بذلك أنهم فى نعمة يتنعمون بها شأن التمتع بالبستان، وليس كشأن الناطور والعمال.

﴿ فَاكِهِينَ بِمَا آتَاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿١٨﴾ ﴾ فاكهين : ناعمين متلذذين ، وفى القاموس ، الفاكهة : صاحب الفاكهة، الطيب النفس الضحوك، فاكهين بإنعام الله عليهم ورضاه عنهم، فما لهم سرور خالص، وصفاء وتلذذ، يتناولون من النعيم تلذذا لا لدفع ألم جوع أو عطش، بل هم متلذذون لوقايتهم عذاب الجحيم ، والجحيم هى جهنم ، لأنه من أسمائها.

﴿ كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ ﴾ أى كلوا واشربوا أكلا وشربا هنيئا، وترك ذكر المأكول والمشروب دلالة على كثرته وتنعمه، والهنىء صفة الطعام إذا كان سائغاً بحيث لا يورث الكدر من التخم والسقم، وسائر الآفات كما كان فى الدنيا، كل هذا النعيم بسبب ما كنتم تعملون من خير فى الدنيا . قال فى فتح الرحمن: إن رتب الجنة ونعيمها هى بحسب الأعمال، أما نفس دخول الجنة فهو برحمة الله.

﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ ﴿٢٠﴾ ﴾ متكئين : معتمدين ومسندين على سرر جمع سرير، وهو من السرور إذا كان لأولى النعمة، هذه السرر اصطف بعضها إلى جانب بعض، والظاهر أن لكل فرد عدة سرر مصطفة معّدة لزائريهم، فكل من اشتاق لصديقه يزوره فى منزله، فالغرض من وصف السرر بأنها مصفوفه بث الراحة النفسية فى قلوب المؤمنين بإبقائهم مع أصدقائهم وزيارتهم لهم. وقد زوجناهم بحسناوات يحار الطرف فى حسنهن ذوات عيون واسعة مع جمالها. وهذا الوصف يفيد المتعة الحسية التى يوحى بها الجمال. وليس المراد بزوجناهم عقد النكاح؛ بل بمعنى تصيرهن أزواجاً لا أفرادا، لأن الزوجية لا تتحقق دون انضمام الواحد مع الآخر، وقال فى فتح الرحمن وزوجناهم : قرناهم، وليس فى الجنة تزويج كالدنيا.

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ (٢١) ﴾ أى : الذين آمنوا وألحقنا بهم نسلهم فى إيمانهم، والتنكير هنا يفيد التقليل، أى بشىء من الإيمان، قليل الثمرة ضعيف الفائدة، أى قاصرين عن رتبة إيمان الآباء، فألحقنا بهم أولادهم صغاراً وكبارا، ليكمل سرورهم ونعيمهم فى الجنة، فالأولاد الكبار منهم والصغار يتبعون آباءهم بسبب إيمانهم، فكبارهم بإيمانهم بأنفسهم، وصغارهم بأن اتبعوا فى الإسلام آباءهم، لأن الولد يحكم بإسلامه تبعاً لأحد أبويه إذا أسلم.

(وما ألتناهم) أى وما أنقصنا الآباء من عملهم وثوابهم شيئاً ، بأن أعطينا ثواب أعمالهم لأبنائهم، فينقص ثواب الآباء، لم نفعل ذلك، وإلا لأبغض الآباء أبناءهم فى الدنيا، وإنما رفعنا ثواب الأبناء إلى درجة ثواب الآباء بمحض التفضل والإحسان (من شىء) نكرة وقعت بعد نفى (ما ألتناهم) فهى تفيد العموم ، فنفى نقصان الثواب على العموم القليل منه والكثير على حد سواء ، وإنما يحتفظ الآباء بثواب أعمالهم كاملاً .

فكل امرئ بالغ عاقل مكلف مرهون عند الله بالعمل الصالح، الذى هو دين عليه، فإن عمله وأداه كما هو مطلوب منه فقد فك رقبته من ثقل التكليف الذى يشبه الرهن، وإلا أهلك نفسه، فالرهن ما يوضع عند المرتهن فى مقابلة الدّين، ولما كان الرهن يتصور حبسه، استعير الرهن بأى شىء كان للعمل فى الدنيا، فالعمل الصالح بمنزلة الدّين الثابت على المرء من حيث إنه مطالب به، ونفس العبد مرهونة به، فكما أن المرتهن إذا لم يصل إليه الدين لا ينفك منه الرهن، كذلك العمل الصالح ما لم يصل إلى الله لا تتخلص نفس العبد المرهونة، ولا تنفك رقبته من الرهن فيهلك.

﴿ وَأَمْدَدْنَاهُم بِفَاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢٢) ﴾ الإمداد يأتى فى المحبوب ، والمد يأتى فى المكروه ، أى أمد الله أصحاب الجنة بالثمار كلها، ما يعرفونه منها وما لا يعرفونه ، وزادهم على ذلك كثيرا مما يشتهون من ضروب النعم والترفه. والتنكير فى فاكهة ولحم للتكثير والتنويع أى فاكهة كثيرة متنوعة ، ولحم كثير متنوع.

﴿ يَتَنَازَعُونَ فِيهَا كَأْسًا لاَّ لَغْوٌ فِيهَا وَلا تَأْثِيمٌ ﴿٢٣﴾ ﴾ نزع الشيء : جذبه من مقره، والتنازع : التجاذب ، ويكون ذلك فى المخاصمة والمجادلة ، والمراد هنا التعاطى والتداول على طريق التجاذب، وهو تجاذب من فرط السرور والمحبة وفيه نوع لذة، إذ لا يتصور فى الجنة، التنازع بمعنى التخاصم، والمعنى أنهم يتعاطون فى الجنات ، ويتداولون هم وجلساؤهم فى رغبة شديدة، وشوق كبير.

(كأسا) الكأس : قدح فيه شراب، فإذا لم يكن فيه شراب لا يسمى كأسا، والمائدة لا تسمى مائدة ما لم يكن عليها طعام . والمراد بالكأس هنا ، ما فى داخلها من خمر، ليست كخمر الدنيا تجلب الصداع، وإنما هى خمر لا يصدعون عنها ولا ينزفون فعبر على سبيل المجاز بالمحل وهو الكأس، وأراد ما يحل داخلها من خمر، خمر لا لغو فى شربها ، ولا يتحدثون أثناء شربها بتافه الكلام وسقط الحديث، فاللغو من الكلام: ما لا يعتد به ، وهو الذى يورد لا عن فكر وروية فيجرى مجرى اللّغا، وهو صوت العصافير ونحوها من الطيور. (ولا تأثيم) ولا يفعلون مايؤتمون به من كذب وفاحشة كما هى عادة المنادم فى الدنيا، ولا يتكلمون إلا بالكلام الحسن والحديث الجميل، ولا يفعلون إلا ما يفعله الكرام، لأن عقولهم ثابتة غير زائلة .

﴿ وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ الطواف : المشى حول الشيء ومنه الطائف لمن يدور حول البيوت ، والمعنى: ويدور على أهل الجنة بالكئوس غلمان، جمع غلام وهو من طرّ شاربه وأخذ فى الإنبات، وهم مملوكون لأهل الجنة مخصوصون بهم، وقال غلمان لهم ، ولم يقل : غلمانهم حتى لا يتوهم أنهم هم الذين كانوا يخدمونهم فى الدنيا، فيحزن لكونه لا يزال تابعا، وقال غلمان بالتنكير؛ ليفيد أنهم خدم لم يكن على معرفة بهم فى الدنيا، ثم وصف الغلمان بأوصاف تعلى من شأنهم وترفع من قدرهم ، فشبههم باللؤلؤ المكنون فى البياض والصفاء، وكون هذا اللؤلؤ محفوظاً فى أصدافه فيكون أرطب وأصفى إذ لم تمسه الأيدي، ولم يقع عليه غبار، وإذا كان هذا هو حال الخادم فكيف يكون حال المخدوم، لاشك أنه أرفع قدراً ومكانة، والرسول ﷺ ويقول : « والذى نفسى بيده إن فضل المخدوم على الخادم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب ».

﴿ وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ (٢٥) ﴾ أن يسأل كل واحد منهم الآخر عن أحواله وأعماله وما استحق به نيل ما عند الله وفضله، وذلك تلذذا واعترافا بالنعمة العظيمة على ما هى عادة أهل المجلس يشرعون فى التحادث ليتم به استئناسهم، فيكون كل واحد منهم سائلاً ومسئولاً.

﴿ قَالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنَا مُشْفِقِينَ (٢٦) ﴾ قال كل من المسئولين إنا كنا قبل دخول الجنة رقاق القلوب، خائفين من عصيان الله تعالى مهتمين بطاعته، وكونهم بين أهلهم فيه مظنة الأمن والأمان، لأن المرء يقوى بأهله وخاصة إذا كان بينهم ، فإذا خاف وهو بينهم ، فلأن يخاف فى سائر الأحوال والأزمان أولى، ولأن « قولهم » فى هذه الآية هو معنى « يتساءلون » فى الآية السابقة ومبيّن لها، ترك العاطف بين الجملتين مبالغة فى ادعاء عدم انفكاك كل من الجملتين عن الأخرى.

﴿ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا وَوَقَانَا عَذَابَ السَّمُومِ (٢٧) ﴾ أى أنعم الله علينا بالرحمة والتوفيق للحق، وحفظنا من عذاب النار التى تنفذ فى المسامّ وتثقب الجسد.

والسموم : هى الريح الحارة التى تدخل المسام، وأراد بها جهنم على سبيل المجاز لنفوذ حرها فى المسام كالسموم . وفى ذلك تعريض بأن بعض أهلهم لم يكونوا على صفتهم فحرموا من دخول الجنة، وكلمة الأهل تشمل الأزواج والأولاد، والعبيد والإماء، والأقارب والأصحاب، فبعضهم دخل الجنة ثوابا لفعله الخير، وبعضهم دخل النار لفعله الشر.

﴿ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (٢٨) ﴾ إنا كنا فى الدنيا قبل لقاء الله نعبده ونسأله الوقاية من المهالك، فهو المحسن الكثير الرحمة، إذا عُبد آثاب، وإذا سئل أجاب ، وهو المحسن وحده، وهو الرحيم لا غيره.

﴿ فَذَكِّرْ فَمَا أَنتَ بِنِعْمَتِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ (٢٩) ﴾ والنبى (ص) مأمور بتذكير من يخاف الله، والأمر هنا أريد به الدوام على التذكير للمشركين بما أنزل الله إليه من الآيات والذكر الحكيم، ولا يكترث بما يقولون مما لا خير فيه، وإلا فهو مذكر لهم يهمل التذكير. وقد نفى عنه القرآن صفة الكهانة، والكاهن هو من يبتدع القول ويخبر عما سيكون من غير وحي. فكلام الكاهن مبنى على الظن يخطئ فى بعض ويصيب فى البعض الآخر.

أما الرسول فكلامه وحى، لا لبس فيه ولا احتمال ، بل هو قطع وحسم. كما نفى عنه القرآن صفة الجنون التى وصفه بها الكفار، والجنون هو زوال العقل وفساده، بحيث يمنع جريان الأفعال والأقوال على نهج العقل إلا نادرا.

﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (٣٠) ﴾ والمعنى : بل أيقولون ننتظر به ذوائب الدهر فيهلك كما هلك غيره من الشعراء : زهير والنابغة وطرفة وغيرهم، أو ننتظر أوجاع الموت كما مات أبوه شابا، وذلك كما تتمنى الصبيان موت عريفهم ليتخلصوا من عصاه.

وأم هنا ليست عاطفة ، بل هى تفيد الاستفهام ، واستفهم الله تعالى مع علمه بهم تقبيحاً عليهم وتوبيخاً لهم ، كقولك لغيرهم أجاهل أنت؟ مع علمك بجهله . وقد كان الشعر أعز شىء عندهم يتفاخرون به ويحتفلون بشعرائهم، وما وجدوا فى القرآن غير الحلاوة والطلاوة فظنوه شاعراً يقرض الشعر فقالوا إنه شاعر، ولكن ننتظر له الموت ، ننتظره فى قلق واضطراب من حوادث الدهر وتقلبات الزمان، وسميت هذه الأحداث والتقلبات « ريبا » لما يتوهم فيها من المنكر القائم على الأوهام ، والمنون : الدهر والموت، « وريب المنون » أوجاع الموت وآلامه.

﴿ قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُتَرَبِّصِينَ (٣١) ﴾ الأمر هنا بالتربص للتهديد، والمعنى : أتربص هلاككم كما تتربصون هلاكي، وفى الآية وعيد بإهلاكهم ، وقدم الظرف « معكم » على الجار والمجرور (من المتربصين) لأهميته فى الوعيد حيث يؤكد أهمية عقوبته لهم بتربصه بهم، ولم يذكر حرف العطف بين الجملتين كما لم يذكر بين السؤال والجواب .

﴿ أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلامُهُم بِهَذَا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ (٣٢) ﴾ الحلم فى الحقيقة ليس هو العقل ، ولكنه مسبب عن العقل، ولكن الحلم هو ضبط النفس والطبع عن هيجان الغضب، فكلامهم متناقض، ودعواهم مزيفة فمرة يقولون : إنه كاهن، والكاهن ذو فطنة ودقة نظر فى الأمور، ومرة يقولون : إنه مجنون ، والمجنون مغطىً عقله مختلُ فكره، ومرة إنه شاعر ، والشاعر ذو كلام موزون متسق، فكيف تجتمع هذه الأوصاف المتناقضة فى شخص واحد ؟.

« وتأمرهم أحلامهم » ، أسند الأمر إلى الأحلام ليس على سبيل الحقيقة،

لأن الأحلام لا تأمر ولا تنهي، ولكنها سبب فى هذا التناقض، فهى من مجاز الإسناد.

وجمعت الكلمة (أحلامهم) جمع قلة لضعفها وصغر شأنها ، إذ أن مفردها حِلم بالكسر، وهو الأناة والعقل.

وتدرج القرآن فى ذكر صفاتهم من وصف إلى وصف آخر أشد منه خطراً فقال « بل هم قوم طاغون » تجاوزوا الحد فى المكابرة والعناد مع ظهور الحق والسداد . وعبر بكلمة (قوم) دون غيرها لما فيها من معنى التجمع والتعصب على شيء معين . ووصفهم باسم الفاعل (طاغون) لثباتهم على الطغيان والاستمرار فيه.

﴿ أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَل لاَّ يُؤْمِنُونَ (٣٣) ﴾ ثم ارتقى القرآن الكريم إلى ما هو أبلغ وأشد فى الإنكار، لكونهم نسبوا إليه عليه السلام أن يختلق القرآن من تلقاء نفسه، ثم يدعى أنه من عند الله . والتقول : تكلف القول ولا يستعمل إلا فى الكذب. ولم يكتف القرآن بوصفهم بالكذب بل رماهم بعدم الإيمان، ونفاه عنهم نفياً قاطعاً.

والمعنى : أن محمدا عليه السلام قد اختلق القرآن من لدنه ، وليس الأمر كما زعموا ، فهم لكفرهم وعنادهم يرمونه بهذه الأباطيل التى لا يخفى على أحد بطلانها ولكون ذلك مبنيا على العناد وقعوا فى هذا التناقض والتخبط.

﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ (٣٤) ﴾ أى إذا كان الأمر كما زعموا فيأتوا بمثل القرآن من حيث النظم والأسلوب ، وليس شرطاً أن يكون مثله فى معناه، بل بأىّ معنى شاءوا، إن كانوا صادقين ، فإن صدقهم يستدعى قدرتهم على الإتيان بمثله، وذلك لطول ممارستهم للخطب والأشعار، وكثرة مزاولتهم لأساليب الشعر والنثر، والمبالغة فى حفظ الأيام والوقائع والتاريخ ، فإعجاز القرآن يتعلق بنظمه من حيث فصاحته وبلاغته ، لا من حيث ألفاظه ومادته ، فإن ألفاظه ومادته هى ألفاظ العرب ومادتهم ، والله يقول : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا ﴾ الزخرف ٣، وأطلق القول لهم حين قال ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ ﴾ لأن الحديث : كل ما يتحدث به من كلام أو خبر، فأراد: فليأتوا بكلام يقولونه ، أو خبر يذكرونه ، أو معنى يلقونه ، فلم يحدد لهم

طريقة معينة، ولذا جاء منكراً وعبر بإن فى قوله (إن كانوا صادقين) ولم يقل : (إذا كانوا صادقين) مثلاً لأنّ إنْ تستعمل فى الأمور المشكوك بصحتها ، والتى لايجزم بصوابها فصدقهم مظنون فيه غير قائم على برهان قاطع، وإنما هو مجرد افتراء وادعاء.

﴿ أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) ﴾ فهل هؤلاء المكذبون الذين خلقوا على هذه الهيئة العجيبة ، والشكل البديع ، خلقوا من غير محدث، أم خلقهم الله جل شأنه؟ وقيل : هل خلقوا من أجل لا شىء من عبادة وجزاء، أم هم الخالقون لأنفسهم ، ولذلك لا يعبدون الله تعالى .

﴿ أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ بَل لاَّ يُوقِنُونَ (٣٦) ﴾ ورغم أنهم إذا سئلوا من خلقكم وخلق السموات والأرض؟ قالوا : الله ، ولكنهم غير موقنين لما قالوا، ولذلك أعرضوا عن عبادته تعالى .

﴿ أَمْ عِندَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُسَيْطِرُونَ (٣٧) ﴾ ثم يتهكم الله على تصرفاتهم وسلوكهم وينكر عليهم ذلك، فيقول : هل عندهم خزائن رزقه ورحمته حتى يمنحوا النبوة لمن يشاءون ويمنعوها عمن يشاءون ، أم عندهم خزائن علمه وحكمته حتى يختاروا للنبوة من اقتضت الحكمة اختياره. فهل ترى تلعبا وتهكما بهم أكثر من ذلك، أم هم المسيطرون الغالبون على الأمور كلها يدبرونها كيف شاءوا، ثم ارتقوا فى التدبير حتى يدبروا أمر الربوبية ، ويبنوا الأمور على إرادتهم ومشيئتهم .

وجمع كلمة خزينة فقال « خزائن » أى يقول مستنكراً هل هم ذوو قوة وغنى حتى وصلوا إلى مكانة الربوبية ، وسيطروا على الكون كله، ولكن القرآن ينفى عنهم كل أولئك.

وفى القاموس : المسيطر : الرقيب ، الحافظ، المتسلط.

﴿ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٣٨) ﴾ السلم : مايتوصل به إلى الأماكن العالية ، ويرجى به السلامة، ثم أطلق على كل ما يتوصل به إلى الهدف.

ثم اشتد القرآن فى تهكمه بعد ما أنكر عليهم كل ترهاتهم واحتمالاتهم العقلية، فلم يبق، إلا أن يكذبهم فى أمورهم الحسية التى تبدو مستحيلة أيضا، فقال

ألهم سلم يصعدون فيه ويستمعون كلام الملائكة وما يوحى إليهم من علم الغيب حتى يتقولوا بما يرجفون ، ويرجموا بالغيب.

(يستمعون فيه) أى يستمعون عليه ، كقوله تعالى (لأصلبنكم فى جذوع النخل). أى عليها. فاستعمل فى مكان على مجازا.

« فليأت مستمعهم بسلطان مبين » الأمر هنا أمر تعجيز ، فقد أمرهم الله سبحانه أن يأتوا بحجة واضحة تصدق أنه ارتقى سلما إلى السماء ليسمع ملائكة الله وما يوحى به إليهم ، ولم يحدد برهاناً معيناً ولذلك قال بسلطان أىّ سلطان أو برهان يكون واضحاً جليا يدل على صدقه فى الصعود والاستماع !!.

﴿ أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ (٣٩) ﴾ ثم أنكر عليهم مرة أخرى حيث جعلوا لله مايكرهون من نسبة البنات إليه جل شأنه ، فسفّه أقوالهم، لأن من يكون هذا رأيه لايعد عاقلاً، ومن يجعل خالقه أقل منه شأناً فينسب إليه الإناث وينسب إلى نفسه الذكور، ورضى لله مالا يرضى لنفسه ، فإنه لم يستبعد منه أمثال تلك الترهات والحماقات .

وقال بأسلوب الخطاب (ولكم البنون) بعد ما قال فى الآية السابقة (أم لهم سلم) بأسلوب الغائب ، فعدل عن ذلك إلى أسلوب الخطاب على سبيل الالتفات لتشديد التوبيخ والإنكار عليهم ، فأغلظ ما يكون الإنكار والتوبيخ إذا كان مواجهة.

وقدم الجار والمجرور فقال (أم له البنات ولكم البنون) لإفادة التخصيص حيث خصوا الله بالبنات وخصوا أنفسهم بالبنين.

﴿ أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْراً فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ (٤٠) ﴾ ثم عاد القرآن إلى خطاب الرسول بعد الإعراض عنهم، متسائلاً فى إنكار : أتسألهم أجرا يا محمد على تبليغ الرسالة إليهم ، أراد بذلك أن يفند كل أكاذيبهم وافتراءاتهم ، وما قالوه وما توهموه، وما لم يقولوه ، ولم يخطر على البال ؛ إقذاعا وتنكيلا بهم، فهم مثقلون بدين يحملونه على أكتافهم .

والمغرم أن يلتزم الإنسان ما ليس عليه ، فيلزمه أداؤه . ونكر « أجرا » ، و«مغرم» لتكثير الأجر والمغرم، وبذلك انتفت أعذارهم ولم يبق منها شىء أصلاً ، فلمَ إذن لا يؤمنون برسالتك ؟.

﴿ أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (٤١) ﴾ المراد بالغيب : اللوح المحفوظ الذى يثبت فيه الغيب ، ويحل به ، فعبر بالحالّ وأراد المحل مجازا، فهم يكتبون فيه ، وقدم الضمير (فهم) وكرر الإسناد للفعل (فهم يكتبون) مرة للمبتدأ ومرة للفاعل لتأكيد الكتابة وتقويتها؛ زيادة فى التلعب بهم، وعبر بالمضارع، كأنهم مستمرون فى الكتابة لا ينقطعون عنها.

﴿ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ (٤٢) ﴾ أى لا يكتفون بهذه الادعاءات الباطلة، وتلك المقالات الفاسدة، ويريدون مع ذلك أن يكيدوا بك كيدا كما مكروا بك فى دار الندوة وعقدوا عزمهم على قتلك أو إخراجك.

والكيد : هو الأمر الذى يسوء من ينزل به سواء كان فى نفسه حسنا أو قبيحا والاستفهام هنا للتقرير، أى : أرادوا بك الكيد، وينزلون بك العقاب، ولكن هم الذين يحيق بهم كيدهم ، ويعود عليهم بالوبال، لا من أرادوا أن يكيدوه، فتقديم الضمير «هم المكيدون » لإفادة التخصيص وقصر الوبال عليهم ونفيه عن رسول الله.

﴿ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٤٣) ﴾ فهل لهم إله غير الله يعينهم ويحرسهم من عذابه، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا، فهو منزه عن الشرك والتعدد، بل هو إله واحد فرد صمد.

﴿ وَإِن يَرَوْا كِسْفًا مِّنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَّرْكُومٌ (٤٤) ﴾ كسفا : جمع كِسْفة بالكسر وهى القطعة من الشىء، أى إذا رأوا قطعا من العذاب ساقطا عليهم من السماء لقالوا من فرط طغيانهم وعنادهم، هذا سحاب تراكم بعضه على بعض وسقط فى صورة مطر، ولم يصدقوا أنه قطع ساقطة للعذاب ومعنى مركوم: غليظ لكثرة تراكمه.

﴿ فَذَرْهُمْ حَتَّىٰ يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ (٤٥) ﴾ صعق الرجل : غشى عليه ، أى دعهم يا محمد فى طغيانهم ولجاجهم حتى يعاينوا ، ويروا رأى العين ذلك اليوم الذى يصابون فيه بالقتل وهو يوم بدر، ذلك اليوم الذى هلك فيه المشركون، وكان فارقا بين الشرك والإيمان ، والباطل والحق.

﴿ يَوْمَ لا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا ولا هُمْ يُنصَرُونَ (٤٦) ﴾ أى يوم لا يغنى عنهم مكرهم شيئا ما ولو قليلا من الإغناء، فالتنكير فى « شيئاً » للتحقير ، من الإغناء فى رد العذاب ولا هم ينصرون فى رفع العذاب عنهم ، لا من جهة أنفسهم ولا من جهة غيرهم ، ويؤكد القرآن نفى نصرتهم ، فهم مخذولون أبدا، مهزومون دائماً .

﴿ وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذَابًا دُونَ ذَلِكَ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (٤٧) ﴾ فالذين ظلموا كناية عن أعداء الدعوة الإلهية كأبى جهل وأصحابه، هؤلاء الظالمون لهم نوع آخر من العذاب - ، فتنكير عذاب للتنويع ، غير ما لا قوه من القتل، وهو عذاب القبر وعذاب الآخرة، ولكن أكثرهم لا يعلمون شيئاً أصلاً لفرط جهلهم وغفلتهم ، ومن يعلم ذلك ويصر على الكفر عناداً فهو والجاهل سواء .

﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (٤٨) ﴾ أى اصبر بإمهالهم إلى يومهم الموعود، وبقائك فيا بينهم مع مقاساة الشدائد، ومرافقة الأحزان، ولا تكن فى ضيق مما يمكرون، فإنك فى حفظنا وحمايتنا وتحت رعايتنا، ونحن نرقبك بأعيننا ونكلؤك بحفظنا ، وجمع العين والضمير فقال « بأعيننا » ، إبرازا لكمال الاعتناء وكثرة أسبابه، وهذا هو الفرق بين الحبيب محمد والكليم موسى حيث قال له (ولتصنع على عينى) طه ٣٩ والله سبحانه ليست له أعين ولكنه تعبير مجازى أراد به الرعاية والعناية والحفظ، (فليس كمثله شىء).

وسبح بحمد ربك : أى نزهه عما لا يليق به من صفات الحوادث والمخلوقات، واشكره على نعمائه التى تفوق الحصر، وقل حين تقوم من مجلسك. « سبحانك اللهم وبحمدك » فإن كان ذلك المجلس خيراً ازددت إحساناً، وإن كان غير ذلك كان كفارة له. وعطف سبح على واصبر ، لأن كليهما جملة فعلية ، وفعلها أمر.

﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبَارَ النُّجُومِ (٤٩) ﴾ أفرد الليل دون النهار بالتسبيح والصلاة، لأن العبادة فيه أشق على النفس، وأبعد عن الرياء، بخلاف التسبيح والصلاة فى النهار، فربما تكون للتظاهر والسمعة ، وليس فيها مشقة الليل والقيام

بها والناس نيام خاصة وقت إدبار النجوم من آخر الليل حين يبدأ ضوء النهار فى الانتشار أى وقت صلاة الفجر.

ويقول أكثر المفسرين : إن المراد بذلك : الركعتين قبل صلاة الفجر، وذلك حين تدبر النجوم بضوء الصبح.

وقد ختمت هذه السورة بالنجوم، وافتتحت السورة الآتية بالنجم، وفى ذلك من حسن الانتهاء والابتداء، ومن الأسرار مالا يخفى على المتذوق لأساليب القرآن.

* * *

سورة النجم

بسم الله الرحمن الرحيم

السورة مكية بالاتفاق ، إلا الآية رقم ٣٢ فمدنية ، آياتها اثنتان وستون ، وكلماتها ثلاثمائة وستون، وسميت النجم، لافتتاح السورة بلفظ النجم، نزلت بعد سورة الإخلاص.

ومعظم مقاصد السورة : القسم بالوحى ، وهداية المصطفى ﷺ ، وبيان المعراج، وذكر قبيح أقوال الكفار، وعقيدتهم فى حق الملائكة والأصنام، ومدح مجتنبى الكبائر، والشكوى من المعرضين عن الصدقة، وبيان جزاء الأعمال يوم القيامة، وإقامة الأدلة على وجود الخالق، والإشارة إلى أحوال من أهلكوا من القرون الماضية ، والتخويف بسرعة مجىء القيامة، والأمر بالخضوع والانقياد لأمر الحق تعالى فى قوله (واسجدوا لله واعبدوا).

فى فضل السورة ، حديث عن أبّى :

من قرأ « والنجم » أعطى من الأجر عشر حسنات بعدد من صدّق بمحمد صلى الله عليه وسلم .

وحديث على : يا على من قرأها أعطاه الله بكل آية قرأها نورا، وبكل حرف ثلاثمائة حسنة، ورفع له ثلاثمائة درجة.

وفى سورة النجم أقسم الله سبحانه مخاطباً قريش بالنجم إذا غرب، أقسم بأن محمدا « صلى الله عليه وسلم » ما ضل عن قصد الحق، ولا غوى فى اتباع الباطل، وما آتاكم به من القرآن لم يصدر عن هواه ورأيه، وإنما هو وحى من عند الله يوحى إليه، نزل به جبريل عليه السلام ، وجبريل ملك شديد القوى، ومن مظاهر قوته أنه اقتلع قرى قوم لوط وحملها على جناحه، ورفعها إلى السماء ثم قلبها، وصاح صيحة بثمود وهم قوم صالح فأصبحوا جاثمين هالكين. وقوة جبريل مقترنة بأنه ذو منظر حسن أخاذ، وقد ظهر جبريل عليه السلام لمحمد « ﷺ»

بصورته الحقيقة، وليس بالصورة التى كان يتمثل بها كلما هبط بالوحى ، وهى صورة مهولة تملأ السماء ولا تستطيع العين أن تحتويها، ولم تكن رؤية محمد لجبريل مرة واحدة، وإنما رآه مرة أخرى فى السماء ليلة الإسراء والمعراج، فقد دنا من الرسول عند سدرة المنتهى بالهيئة التى خلقه الله عليها.

وكان حين يراه محمد عليه السلام لم يتشكك فى رؤيته، ولم يكذبه فؤاده، بل أكد ما رآه ببصره ما شعر به فؤاده من صورة جبريل عليه السلام. فلا تجادلونه ياأهل مكة على ما رآه وتيقن منه.

ورآه مرة ثانية عند سدرة المنتهى، أى عند شجرة نبق فى السماء السابعة عن يمين العرش ، إليها ينتهى علم الملائكة ، ولم يجاوزها أحد، ولا يعلم أحد ماوراءها. وعند سدرة المنتهى تكون الجنة التى يأوى إليها المتقون وأرواح الشهداء، ويغشاها الجم الغفير من الملائكة يعبدون الله عندهم. وقد رأى محمد عليه السلام عند سدرة المنتهى أمورا عجيبة ، رآها حقيقة مؤكدة، رآها كما أراد الله له أن يراها ، رأى كل ما أمر برؤيته ، دون أن يتجاوز ما أمر به.

وينتقل بنا القرآن إلى مشهد آخر، وهو مشهد عبادة قريش لآلهتهم التى كانوا يقدسونها: اللات والعزّى ومناة، وهى صنم وشجرة وصخرة كلها تشتمل على صفة الإناث، وكانوا يقولون إن هذه الملائكة وهذه الأصنام بنات الله، فجعلوا لله البنات واستأثروا هم بالبنين، أليست هذه قسمة جائرة، أليست هذه الأصنام مجرد أسماء ليس تحتها أمر كبير يستحق العبادة، مجرد أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم، بدافع من الوهم واشتهاء النفس، وتركوا ما جاءهم به الرسول والكتاب من الهدى ، وقد تمنوا أن تشفع الأصنام لهم. مع أن شفاعة الملائكة لا تغنى شيئاً، ورغم كثرتهم لو شفعوا جميعاً لأحد، لا تنفع شفاعتهم ، إلا إذا شفعوا بعد الإذن بالشفاعة لمن يراه الله أهلا لأن يشفع له فأعرض يا محمد عمن أعرض عن القرآن، وتكالب على مظاهر الدنيا، فالله أعلم بالضال والمهتدى ، فيعاقب من أساء بسبب إساءته، ويثيب من أحسن بسبب إحسانه، فالله ينصر أولياءه ويقهر أعداءه.

وأولياء الله هم الذين يجتنبون الآثام الكبيرة، وما فحش منها، ولكون الله واسع المغفرة ، فهو يغفر عن صغائر الآثام التى لا تعد من الكبائر.

والله يعلم أحوالنا من قبل أن يخرجنا من صلب آدم عليه السلام، ومن قبل أن نخرج من بطون أمهاتنا، فلماذا نثنى على أنفسنا . وقد علم الله منا الزكى والتقي، وعلينا أن نكتفى بعلمه عن ثناء الناس.

ثم ينتقل القرآن إلى مشهد آخر موجود فى كل المجتمعات على اختلاف مشاربها، وهو مشهد يقتضى العجب ويدعو إلى الدهشة ، وهو أمر ذلك الشخص الذى يبذل من نفسه ومن ماله من أجل عقيدته ، ثم يكف عن مواصلة البذل خوفاً من الفقر أو نقصان المال، فهذا أمر يستحق العجب ولا شك ، لأن الغنى والفقر فى علم الغيب، ولا يأمن الإنسان شيئاً من هذا أو ذاك، وعليه أن يواصل البذل، فلا يعطى ثم ينقطع عن العطاء.

وما جاء به محمد من دين قد اتفق مع ما سبقه من ديانات الرسل، يؤكد بعضه بعضا، يتأكد مع ما جاء فى توراة موسى وصحف إبراهيم بأن لا تزر وازرة وزر أخرى، فلا تحمل نفس ذنب نفس سواها، إذ ليس للإنسان إلا سعيه ، حتى الصدقة على الميت والحج عنه لا تجزئ عن الميت إلا إذا فعله نيابة عنه ، فيقوم مقامه.

والله هو الذى ينتهى إليه الخلق ويرجعون إليه، وهو الذى خلق الضحك والبكاء، والفرح والحزن، والموت والحياة، والذكر والأنثى ، أى كل شىء وضده جلت قدرته ، وتبرز هذه القدرة حين تتدفق النطفة فى الرحم فيولد الأبناء، وإليه يعودون مرة أخرى، وهو الذى أعطى وزاد فى المنح والبذل، وهو رب الكواكب، رب الشعرى التى كان بعضهم يقدسها، وأنه أهلك قوم هود، وقوم صالح لم يبق منهم أحدا، وأهلك قوم نوح قبلهم لظلمهم وطغيانهم ، وأهوى بقرى قوم لوط لفسقهم وفجرهم، فحلّ بها من الأهوال ما حل. فهل لك أيها المخاطب أن تتشكك بما أولاك من النعم، وبما كفاك من النقم.

هذا نذير : أى محمد نذير من بين الرسل السابقين المنذرين ، باقتراب الساعة، التى لا يعلم موعدها أحد، ولا يجليها لوقتها إلا هو.

وتختم السورة بالإنكار والتقريع للمشركين ، أمن القرآن تعجبون إنكاراً له، واستهزاء به، ولا تبكون خشوعاً له، وأنتم لاهون غافلون، فاسجدوا لله واعبدوه، ولاتعبدوا من دونه الآلهة سواء أكانت شجراً أم صخراً أم صنماً.

﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ① ﴾ سورة النجم أول سورة جهر بقراءتها فى الحرم رسول الله (ﷺ) ، والمشركون يستمعون ، نزلت فى شهر رمضان من السنة الخامسة من النبوة، ولما بلغ عليه السلام « السجدة » وهى قوله فى آخر السورة (فاسجدوا لله واعبدوا) النجم ٦٢ سجد معه المؤمنون والمشركون ، والإنس والجن، غير أبى لهب فإنه رفع تكبراً حفنة من تراب إلى جبهته، وقال يكفينى هذا، وفى رواية أخرى: كان ذلك الوليد بن المغيرة ، فإنه رفع تراباً إلى جبهته فسجد عليه، لأنه كان شيخاً كبيراً لا يقدر على السجود.

وإنما سجد المشركون ، لأن النبى حين بلغ قوله تعالى : (أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى) النجم ١٩ , ٢٠ ألحق الشيطان به قوله : تلك الغرانيق العلى، وإن شفاعتهن لترتجى، فسمعه المشركون وظنوا أنه من القرآن فسجدوا، لتعظيم آلهتهم ، ومن ثم عجب المسلمون من سجود المشركين من غير إيمان، إذ هم لم يسمعوا ما ألقى الشيطان فى آذان المشركين.

وأراد بالغرانيق العلى الأصنام، والغرانيق جمع غِرنَوق « الكركى » وهو طائر الماء، وشبهت الأصنام بالغرانيق ، لأن هذه الطيور تعلو وترتفع فى السماء، فالأصنام مشبهة بها فى علو القدر وارتفاعه.

والنجم أول سورة نزلت جملة كاملة فيها سجدة، وهذا لا يتنافى مع سورة العلق (اقرأ باسم ربك الذى خلق) أول سورة نزلت فيها سجدة؛ لأنها لم تنزل دفعة واحدة، وإنما النازل منها أوائلها لا مجموعها.

(والنجم) الواو للقسم ، والنجم : الثريا باتفاق العلماء (إذا هوى) : إذا غرب، فإن الهوىّ سقوط من علوّ إلى أسفل. أى : أن الله أقسم بالنجم الذى يهتدى به السابلة فى البر، والجارية فى البحر إلى مسالكهم ودروبهم. وجواب القسم .

﴿ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ② ﴾ أى ما عدل محمد عن طريق الحق الذى هو مسلك الآخرة ، وما جهل عن اعتقاد فاسد، فغوى بمعنى الجهل، فالغىّ والضلال معنيان مختلفان، وليسا بمعنى واحد، فالغواية هى الخطأ فى الاعتقاد خاصة. والضلال أعم من ذلك ، فيتناول الخطأ فى الأقوال والأفعال والأخلاق والعقائد التى شرعها الله وبينها لعباده، والمعنى : وما اعتقد محمد باطلاً قط، فهو فى غاية الهدى والرشاد، وليس كما تتوهمونه من الضلال والغواية فى شىء أصلاً ، وكانوا

يقولون : ضل محمد عن دين آبائه، وخرج عن الطريق . والخطاب هنا لقريش، وعبر بكلمة « صاحبكم » لأن الصاحب يقف على تفاصيل أحوال صاحبه ، ويحيط بأخباره ، وبراءته عن كل وصف به من الضلال والغواية، أى أنكم صحبتموه وجربتموه وعرفتم ظاهره وباطنه ولم تجدوا به خيلاء ولا جنة.

والقسم بالنجم يقتضى تعظيمه ، وقد كان فيهم من يعبده ، فقال (والنجم إذا هوى) تنبيهاً بهويّه على عدم صلاحيته للألوهية.

وفى قوله (ما ضل صاحبكم وما غوى) بيان لفضل محمد ﷺ ، إذ قال القرآن فى حق آدم عليه السلام : (فعصى آدم ربه فغوى) طه: ١٢١ يقول بعض المفسرين : سمى الله محمداً بالنجم فى هذه الآية ، كما سماه (سراجاً منيراً) فى آية أخرى الأحزاب ٤٦، لأنه يستضاء بنور وجهه ، وضياء علمه وهداه، وهوىّ هذا النجم وغروبه من مكة بعد المدة المذكورة وهجرته إلى المدينة ، ولذا أقسم الله على عدم ضلاله وغيه، فلما غرب من مكة، أظلمت الدنيا على قريش ، وصاروا فى ظلمة شديدة، ولما طلع على المدينة أشرقت الأرض على المؤمنين.

﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ﴿٣﴾ ﴾ ينطق: يتكلم بصوت وحروف يفهم بها المعنى، ولا يستعمل الكلام فى حق الله تعالى ، لأنه من خواص المخلوق ، والهوى : الميل المخصوص المذموم إلى الشهوات والمستلذات من غير داعية الشرع، ولذلك يقال للمبتدع: صاحب هوى؛ لأنه يميل إلى ما يهواه ، ولذلك يقول الله تعالى لنبيه داود عليه السلام ﴿ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ سورة ص ٢٦ والمعنى : ومايصدر نطقه بالقرآن عن هواه ورأيه أصلا، وعبر بصيغة المضارع (ينطق) لاستمرار نفى النطق عن الهوى ، و « عن » هنا بمعنى الباء، أى : وما ينطق بالهوى. ونلاحظ أنه قال أولاً : « ما ضل وما غوى » بصيغة الماضى ثم قال : « وما ينطق عن الهوى » بصيغة المضارع والمستقبل ، ليبين حاله قبل البعثة وبعدها، أى : ماضل وما غوى قبل أن يبعث رسولا، وما ينطق عن الهوى الآن حين يتلو عليكم آيات ربه، ولكى يفيد الماضى تحقق الضلال والغواية فى زعمهم، كما يفيد المضارع تجدد النطق فى كل حال.

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴿٤﴾ ﴾ وما ينطق به من القرآن وحى من الله تعالى يوحى إليه بواسطة جبريل عليهما السلام، فهو وحى حقيقة وليس مجازا، ولذلك

وصف الوحى بأنه يوحى رفعا لتوهم احتمال المجاز، و الوحى قد يكون بمعنى الكتاب، وقد يكون بمعنى الإرسال، والإلهام ، والإشارة والإفهام. والأسلوب يفيد التخصيص ، أى القرآن وحى وليس شيئاً آخر سوى كونه وحيا، فهو ليس أساطير ولا خرافات ولا أكاذيب، ولا شيئا يشبه ذلك بحال من الأحوال.

﴿ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ (٥) ﴾ أى نزل بالقرآن على محمد، وقرأه وبيّنه له إذا كان الوحى بمعنى الكتاب، أو علمه وبلغه إلى قلبه إذا كان بمعنى الإلهام، فيكون كما قال تعالى : ﴿ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمِينُ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ ﴾ الشعراء ١٩٤.

(شديد القوى) ملك شديد قواه وهو كناية عن جبريل عليه السلام، فهو الواسطة بين الله ورسوله . ومما يدل على شدة قوته أنه قلع قرى قوم لوط ورفعها على جناحه إلى السماء ، ثم قلبها، وصاح بثمود صيحة فأصبحوا جاثمين، موتى على هيئة القاعدين، ولذلك عبر بصيغة المبالغة فقال شديد، كما عبر بالجمع فقال القوى جمع قوة.

﴿ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ (٦) ﴾ ووصف جبريل بأنه ذو حصافة، واستحكام فى عقله ورأيه، ومتانة فى دينه، وأصل المرّة : الحبل الشديد الفتل ، فاستعار ذلك لحكمة الرأى ومتانة الدين، لما فى كل منهما من شدة الإحكام ومتانة الفعل.

ومعنى « فاستوى » أى ظهر على صورته التى خلقها الله عليها بأجنحته المتعددة المزّينة بالجواهر، وهى غير الصورة التى كان يتمثل بها كلما هبط بالوحى، كصورة دحية أمير العرب، وكما أتى إبراهيم عليه السلام فى صورة الضيف، وداود عليه السلام فى صورة الخصم. ذلك أن رسول الله أحب أن يرى جبريل فى الصورة التى جبل عليها ، وكان الرسول بغار حراء، فقال له جبريل: إن الأرض لا تسعنى ، ولكن انظر إلى السماء، فطلع له جبريل يملأ الأفق، فخر رسول الله، فنزل جبريل فى صورة الآدميين وضمه إلى نفسه وجعل يمسح الغبار عن وجهه.

﴿ وَهُوَ بِالأُفُقِ الأَعْلَىٰ (٧) ﴾ الأفق الأعلى : مطلع الشمس ، كما أن الأفق الأدنى مغربها، أى أن جبريل كان بأفق الشمس ، أى أقصى الدنيا عند مطلع الشمس.

﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ (٨) ﴾ أى أراد الدنو والقرب من النبى عليه السلام وهو فى جبل حراء. والإرادة تسبق الدنو، وسبب عنه، فعبر بالمسبب دون السبب.

(فتدلى) أى استرسل من الأفق الأعلى مع تعلقه به، فدنا من النبى عليه السلام، كما يتدلى المرء من السرير برجليه، وهو ما يزال جالساً عليه.

﴿ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ⑨ ﴾ فكانت المسافة بينه وبين الرسول شديدة القرب كالمسافة بين الوتر والقوس، وفى ذلك إشارة إلى تأكيد القرب؛ بل إن المسافة بينهما أقرب مما بين القوس والوتر، وفى ذلك تمثيل لشدة الاتصال، وتحقيق الاستماع لما أوحى إليه، وفى البعد الذى قد يفضى إلى غير ذلك.

وأصل التمثيل بالقوس : أن الحليفين من العرب كانا إذا أرادا عقد الصفاء والعهد، خرجا بقوسيهما فألصقا بينهما، يريدان بذلك أنهما متظاهران، يحامى كل واحد منهما عن صاحبه.

﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ⑩ ﴾ فأوحى جبريل إلى عبد الله ما أوحى من الأمور العظيمة التى لا تفى بها العبارة، وأضمر قبل الذكر لغاية ظهوره، والمراد بعبد الله هو الرسول ﷺ. أو عبر بالاسم الموصول « ما أوحى » إرادة تفخيم ما أوحى الله به إلى رسوله بواسطة جبريل.

﴿ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ⑪ ﴾ أى ما كذب قلب محمد ﷺ ما رآه ببصره من صورة جبريل ، ولم يقل فيه كذبا : لا أعرفك ولا أعتقد بك.

﴿ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ⑫ ﴾ أى : أتكذبون محمدا عليه السلام فتجادلونه على ما يراه معاينة من صورة جبريل، وذلك أن النبى ﷺ لما أخبر برؤية جبريل تعجبوا منه وأنكروا.

والمماراة : المجادلة بالباطل ، وفيه معنى الغلبة ، لأن الممارى يقصد بفعله غلبة الخصم.

وقال بعض المفسرين : أفتجادلونه على رؤية الله تعالى أى أن محمداً رأى الله، وهم يجادلونه فى ذلك وينكرون أن يكون محمد قد رآه .

﴿ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ⑬ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ⑭ ﴾ وأقسم بالله لقد رأى محمد جبريل على صورته الحقيقية مرة أخرى، وأكد القسم باللام وقد ، ورآه عند سدرة المنتهى ، وهو مقام جبريل، إذ بقى هناك عند عروج محمد إلى العرش ، وقال جبريل : « لو دنوت أنا لاحترقت، فمكث فى مكانه عند سدرة المنتهى.

وسدرة المنتهى هى شجرة نبق فى السماء السابعة عن يمين العرش والمنتهى بمعنى الانتهاء ، أو موضع الانتهاء ، ينتهى إليها الملائكة ، ولا يتجاوزونها ؛ لأن جبريل رسول الملائكة إذا لم يتجاوزها، من باب أولى ألا يتجاوزها غيره. أو ينتهى إليها علم الخلق وأعمالهم ولا يعلم أحد ما وراءها.

﴿ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ﴿١٥﴾ ﴾ عند السدرة هذه ، الجنة التى يأوى إليها المتقون وينزلون فيها، وتعود إليها أرواح الشهداء.

﴿ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ﴿١٦﴾ ﴾ يغشى بمعنى يغطى ويستر ، وعبر بصيغة المضارع استحضارا لصورة غشيان الملائكة لها، تلك الصورة الغريبة البديعة، وهو غشيان مستمر لا ينقطع ، دائم متجدد كما يفيد التعبير بالفعل المضارع، وذكر الفعل (ما يغشى) دون أن يذكر الفاعل ، لإفادة التكثير والعموم ، إذ يغشاها مالايدركه الوصف ولا يفى به البيان من الأعاجيب التى لم تقع عليها عينه من قبل .

﴿ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾ ﴾ الزيغ : الميل عن الاستقامة، أى فما مال بصر الرسول أدنى ميل عما رآه وما تجاوزه ما رآه مما لا يحصى من الأمور المذهلة، بل أثبته إثباتاً صحيحاً متيقناً.

﴿ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ﴿١٨﴾ ﴾ وبهذه الآية يستدل العلماء على رؤية محمدلله تعالى بعين بصره يقظة، لأن وصف البصر بعدم الزيغ يقتضى أن ذلك كان يقظة، ولو كانت الرؤية قلبية لقال: ما زاغ قلبه .

وأقسم جبريل أن محمداً رأى ليلة المعراج، الآيات الكبرى والعظمى التى تدل على الملكوت الذى لا يحيط به نطاق العبارة، والكبرى صفة للآيات وحذف المفعول به للتعميم والتعظيم ، كأنه قال : لقد رأى شيئاً عظيماً من آيات ربه ، فيها الكثير من الأعاجيب التى تدهش البصر والفؤاد .

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾ هى أصنام كانت للمشركين يعظمونها ويعبدونها .

فاللات كانت لثقيف بالطائف ، لأنهم كانوا يطوفون بها، وكانت على صورة آدمى.

والعّزى شجرة كانت لغطفان يعبدونها ، فبعث رسول الله «صلى الله عليه وسلم» خالد بن الوليد فقطعها ، وهدم البيت الذى أقاموه عليها ، وأحرق الشجرة.

ومناة : صخرة لهذيل وخزاعة ، وسميت مناة، لأن دماء المناسك تمنى عندها، أى تراق، ووصف مناة بالثالثة تأكيداً لها ، لأنها لما عطفت على اللات والعزى فهم بأنها الثالثة، فلما ذكر الثالثة كانت تأكيداً لما فهم من قبل ، والأخرى صفة ذم، أى المتأخرة الوضيعة المقدار، الحقيرة الذليلة ؛ لأن الأخرى تستعمل فى الضعيف الصغير، فالله يقول .

﴿ قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاهُمْ ﴾ الأعراف ٣٨ أى ضعفاؤهم لرؤسائهم .

ويقال : إن المشركين أرادوا أن يجعلوا لآلهتهم من الأسماء الحسنى ، فأرادوا أن يسموا واحداً منها الله، فجرى على ألسنتهم اللات . وأرادوا أن يسموا واحدا منها العزيز، فجرى على ألسنتهم العزّى ، وأرادوا أن يسموا واحداً منها المنّان، فجرى على ألسنتهم المناة .

ومع ما ذكر من عبادتهم لها يقولون : إن الملائكة وتلك الأصنام بنات الله . فقيل لهم توبيخاً وتبكيتا : (أفرأيتم اللات والعزى ...) والهمزة للإنكار يقول الله متهكماً عليهم منكراً لهم : أبَعْد ما سمعتم من آثار كمال عظمة الله فى ملكه وملكوته ، وجلاله وجبروته ، وإحكام قدرته ونفاذ أمره فى الملأ الأعلى ، وما تحت الثرى وما بينهما، رأيتم هذه الأصنام مع غاية حقارتها بناتاً له تعالى .

﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنثَىٰ (٢١) ﴾ توبيخ ثان بعد التوبيخ الأول ، لزعمهم أن الملائكة بنات الله ، بينما هم يستأثرون بالبنين دون البنات ، لرفعة منزلة الذكور عندهم دون الإناث، فجعلوا لله الأحقر، وجعلوا لأنفسهم الأفضل !!.

﴿ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ (٢٢) ﴾ أليست هذه - إذن - قسمة جائرة عوجاء، وضيزى من الضيز، وهو الجور.

﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ (٢٣) ﴾ « إن هى » أى ما الأصنام التى تدعونها آلهة إلا مجرد أسماء ليس تحتها ما ينبئ عن معنى الألوهية ؛ تحقيراً لشأنها ، كما إذا أردت أن تحقر شخصاً ملقب بما يشعر بالفخر والمدح ، تقول ماهو إلا مجرد اسم ليس تحته شأن !.

وقد جعلتموها أسماء ، أى أن هذه الأصنام ، أو هذه الآلهة كما فى زعمكم، والتى أطلقتم عليها أوصاف الآلهة، ما هى إلا أسماء خالية من المسميات

وضعتموها أنتم وآباؤكم بمقتضى أهوائكم الباطلة، وما أنزل الله بصحة تسميتها من برهان .

ثم انتقل من الخطاب إلى الغيبة فقال « إن يتبعون إلا الظن » ليعدد قبائحهم فاقتضى الإعراض عن خطابهم، وحدثهم كما يتحدث عن الغائب احتقاراً لشأنه، فهم لم يتوهموا الحق، وإنما توهموا الباطل وما تشتهيه أنفسهم الأمارة بالسوء، وأكد اتباعهم للظن وهوى النفس القبيحة، ولكن الله أراد أن يمحو شكوكهم ويبدد ظنونهم ، ويهديهم إلى طريق الخير فأرسل إليهم الرسل، وأنزل عليهم الكتب ليهتدوا بها ويعملوا بموجبها، فيفلتون من عذاب جهنم، ويبتعدون عن معصية الخالق جل شأنه.

﴿ أَمْ لِلإِنسَانِ مَا تَمَنَّىٰ (٢٤) ﴾ أى ليس للإنسان كل ما يتمناه وتشتهيه نفسه من الأمور، ومن جملة هذه الأمور طمعهم فى شفاعة آلهتهم ، التى ليس لها من الألوهية شىء على الإطلاق.

والهمزة للإنكار، والتمنى : تقدير شىء فى النفس، قد يكون عن رؤية وواقع، وقد يكون عن تخمين وظن، ولكن أكثر التمنى يكون عن تخمين وظن حتى صار الكذب له أملك، فأكثر التمنى - إذن - تصوير ما لا حقيقة له.

وأم هنا تفيد الانتقال من اتباع الظن وهوى النفس إلى بيان أن ذلك لا يجدى نفعاً أصلاً .

﴿ فَلِلَّهِ الآخِرَةُ وَالأُولَىٰ (٢٥) ﴾ فأمور الآخرة والأولى جميعاً من اختصاص الله سبحانه ، وليس للبشر فيها شأن ، وهذا مما يفيده تقديم لفظ (فلله) ، كما يفيد شمول ملك الله لكل شىء مما يفيده الطباق بين الآخرة والأولى.

﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ (٢٦) ﴾ « كم » تفيد الكثرة ، وجمع الضمير فى شفاعتهم ، مع أن الضمير يعود على لفظة « ملك » وهى مفردة ، باعتبار معنى الجمع ، أى وكثير من الملائكة لا تغنى شفاعتهم عند الله شيئاً من الإغناء، لأنه لم يأذن لهم فى الشفاعة ، وليس لأنهم يشفعون فلا تنفع شفاعتهم- وفى ذلك إدخال اليأس فى قلوبهم ، وتحطيم أطماعهم، لأن عدم شفاعة الملائكة لهم موجب ليأسهم من شفاعة الأصنام بطريق الأولى إلا إذا أذن الله لهم فى الشفاعة لمن يشاء أن يشفعوا له ، ويراه أهلا

للشفاعة من أهل التوحيد والإيمان ، أما أهل الكفر والطغيان فهم بمعزل عن الشفاعة .

﴿إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلائِكَةَ تَسْمِيَةَ الأُنثَىٰ (٢٧)﴾ إن الذين لايؤمنون بالآخرة وبما فيها من العقاب على ما يقترفونه من الكفر والمعاصى ليسمون الملائكة المنزهين عن صفات النقص تسمية مثل تسمية الأنثى؛ لأنهم كانوا يقولون إن الملائكة بنات الله ، فهم يسمونهم بالضرورة تسمية البنات. واللام فى الملائكة تفيد العموم والاستغراق، حتى تشمل كل فرد من أفراد الملائكة، كما أن قوله تعالى « لا يؤمنون بالآخرة » فيه إشعار بأنهم فى الشفاعة والفظاعة واستحقاق العقوبة فى الآخرة بحيث لا يجترئ على هذه التسمية إلا من لا يؤمن بها رأسا .

﴿وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا (٢٨)﴾ وهم حين يسمونهم بهذه التسمية ، لا علم لهم بما يقولون أصلاً وقوله تعالى (إن يتبعون إلا الظن) قد يوهم أنه تكرار لما جاء من قبل ، وليس بتكرار فى الحقيقة، لأن ما جاء أولاً متصل بعبادتهم اللات والعزى وما جاء فى هذه الآية متصل بعبادتهم الملائكة، هذا الظن الفاسد لا يعتد به فى العقيدة وأمور الدين، فالظن لا يقوم مقام العلم. وقيل : الحق فى الآية بمعنى العذاب أى : ظنهم لا ينقذهم من العذاب .

وعبر بالاسم الظاهر فى قوله (إن يتبعون إلا الظن وإن الظن ...) بدلاً من الضمير فكان حق الكلام « إن يتبعون إلا الظن وإنه» إظهارا لفساد ظنهم وتوبيخاً لهم على تعويلهم فى عقيدتهم على هذا الظن الفاسد السيىء الذى يؤدى إلى العقوبة والخسران .

﴿فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٢٩)﴾ أى أعرض يامحمد عن دعوة - من أعرض عن القرآن المنطوى على علوم الأولين والآخرين ، ولا تتهالك على إسلامه ، فهو لم يرد غير الحياة الدنيا ولم يطلب سواها، وقصر نظره على جمع حطامها، وجلب منافعها ، ولم ينظر إلى الآخرة ونعيمها ، ورضوان الله وثوابه ، ومن كانت هذه حالته فلن تزيده الدعوة إلا إصراراً على الباطل ، وتمسكاً وعناداً بالإثم .

وقوله (فأعرض عمن تولى عن ذكرنا) كناية عن ترك النظر فى دلائل وجود

الله ووحدته وسائر صفاته . وقوله (ولم يرد إلا الحياة الدنيا) كناية أيضاً على إنكاره الحشر والبعث ، وقصر همّه على الدنيا دون غيرها .

واعلم أن النبى ﷺ كالطبيب للقلوب ، فأمره الله تعالى فى معالجة القلوب بما عليه الأطباء فى معالجة المرضى، فإن المرض إذا أمكن علاجه بالغذاء لايستعملون فى شفائه الدواء، وإذا أمكن إزالته بالدواء الضعيف، لا يستعملون معه الدواء القوى والكىّ، فأمر الله نبيه بالذكر الذى هو غذاء القلوب ، و « ألا بذكر الله تطمئن القلوب » كما أن بالغذاء تطمئن النفوس من الهلع، والأجسام من الوهن .

﴿ ذَلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدَىٰ (٣٠) ﴾ أى إن إرادة الدنيا وإيثارها على الآخرة هو الهدف الذى لا يكادون يجاوزونه إلى غيره ، حتى ينفعهم الإرشاد ، وتثنيهم الدعوة عما هم عليه من التمسك بمتعهم الزائفة ، هذه الدنيا البغيضة إلى الله بشهادة رسول ﷺ.

« إن الله لم يخلق خلقاً هو أبغض إليه من الدنيا ، وما نظر إليها منذ خلقها بغضا لها » رواه أبو هريرة رضى الله عنه .

وكرر لفظة « هو أعلم » زيادة فى تقرير أحوالهم ، وتباين حالة من ضل ومن اهتدى والمراد بمن ضل ، من أصر عليه ولم يرجع إلى الهدى ، وبمن اهتدى ، من كان شأنه الاهتداء ، فالله أعلم بأحوال خلقه، هو عالم بمن لا يرعوى عن الباطل والضلال، وبمن تقبل الهداية والتقوى، فلا تشغل نفسك بهم، ولا تجهد ذاتك فى دعوتهم وحذف متعلق اهتدى اكتفاء بمتعلق ضل، وطابق بين ضل واهتدى لشمول علمه بكل شىء.

وعبر بأفعل التفضيل (أعلم) ليفيد أن علمه تعالى يفوق علم الناس جميعاً، لأنه خالقهم ، وهو الذى جدير بأن يعلم أحوالهم .

﴿ وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى (٣١) ﴾ أى أن جميع ما فى السماوات وما فى الأرض لله سبحانه لالغيره لا استقلالا ولا اشتراكاً ، فيعلم من ضل ومن اهتدى فيعاقب من أساء، ومن ارتكب من آثام، ومن اقترف من ضلال ، ويثيب من اتقى وعمل خيراً، وسار فى طريق الهدى والفلاح، فالجزاء هنا مرتبط بعمله تعالى بأحوال خلقه شراً وخيرا على السواء.

وبين السماوات والأرض طباق، وبين الذين أساءوا بما عملوا، وبين الذين أحسنوا بالحسنى مقابلة شيئين بشيئين ، لأن معنى أساءوا بما عملوا ، أى بما ارتكبوا من سيئات وهو ضد الحسنى.

﴿ الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ (٣٢) ﴾ وهؤلاء الذين أحسنوا بالحسنى صفتهم اجتناب كبائر الإثم ، وقال «يجتنبون» بصيغة الاستقبال ؛ للدلالة على تجدد الاجتناب واستمراره ، وللإشعار بأن ترك المعصية ينبغى أن يستمر عليه المؤمن بحيث يكون دأبا له وعادة ، حتى يستحق المثوبة الحسنى، فإن من اجتنب عنها مرة ، وانهمك عليها فى باقى الأزمان لا يستحقها.

و (كبائر الإثم) ما يكبر عقابه من الذنوب كالشرك والزنى وقتل النفس، وقال ابن جبير : هى ما لا يستغفر منه لقوله عليه السلام : « لا كبيرة مع استغفار ولاصغيرة مع إصرار ».

(والفواحش) من قبيل التخصيص بعد التعميم ، والفحش والفحشاء والفاحشة: ما عظم قبحه من الأفعال والأقوال.

(إلا اللمم) واللمم : مقاربة المعصية ، ويعبر به عن صغائر الذنوب، تقول : ألممت بكذا، أى نزلت به وقاربته من غير مواقعة ، وألمّ الغلام: قارب البلوغ .

هذه المآخذ لا تخلو عن الذنب فى نفسها ، بل يغفرها الله ، لأن ربك واسع المغفرة ، حيث يغفر الصغائر باجتناب الكبائر.

وهو أعلم منكم بأحوالكم ، يعلمها حيث خلقكم من تراب الأرض ووقت كونكم أجنة ، والأجنة : جمع جنين ، وهو الولد ما دام فى بطن أمه ، وإذا خرج من بطن أمه لا يسمى جنينا، بل يسمى ولدا أو سقطا . وفى اللغة : الذكر يكون غلاماً إلى تسعة عشر فشاباً إلى أربعة وثلاثين، فكهلا إلى أحد وخمسين ، فشيخاً إلى آخر عمره .

(فلا تزكوا أنفسكم) ؛ لأن الله حين لا يؤاخذنا باقتراف صغائر الذنوب ، فليس لعدم عدّها ذنباً أو إثما؛ بل يتجاوز عنها لواسع مغفرته ، مع علمه بصدورها

عنكم، فلا تثنوا على أنفسكم بالطهارة من المعاصي؛ بل اشكروا الله تعالى على فضله ومغفرته.

(هو أعلم بمن اتقى) المعاصى جميعاً ، وفى ذلك تقرير للنهى عن عدم تزكية النفس .

وقيل : كان ناس يعملون أعمالاً حسنة ، ثم يقولون : صلاتنا وصيامنا وحّجنا، فنزلت . وهذا إذا كان بطريق المفاخرة أو الرياء.

أما من اعتقد أن أعماله الطيبة الصالحة بتوفيق من الله وتأييده، ولم يقصد بهذا العمل التمدح أو الرياء، لم يكن من المزكين أنفسهم، فإن المسرة بالطاعة طاعة، وذكرها شكر.

﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّىٰ (٣٣) وَأَعْطَىٰ قَلِيلاً وَأَكْدَىٰ (٣٤) ﴾ أى : أعَرض عن اتباع الحق والثبات عليه ، وأعطى شيئاً قليلا من ماله، بل قطع عطيته وأمسكها بخلا. وفى اللغة : (أكدى) بخل أو قلّ خيره، أو قلل عطاءه، قالوا : نزلت فى الوليد بن المغيرة، فقد أنفق الوليد على أصحاب محمد (ص) نفقة قليلة ثم انتهى عن ذلك ، والهمزة للتقرير وعطف ثلاثة أفعال متلائمة بعضها على بعض وهى : التولى عن الحق، وإعطاء القليل، وقطع العطيّة، فهل ترى ذماً مثل ذلك ؟.

﴿ أَعِندَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَىٰ (٣٥) ﴾ أى أخبرت أن هذا المعطى المكدى البخيل هل عنده علم ما غاب عنه من أحوال الآخرة ، فيتحمل أصحابه أوزاره بدلاً منه ، فالرؤية هنا ليست بصرية، وإنما هى علمية قلبية. والاستفهام هنا تهكمى إنكارى وزاد التهكم عليه بصفة خاصة فقدم « عنده » فأنكر أن يكون عنده علم الغيب ، كما أنكر علمه بأحوال الآخرة.

﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ (٣٦) وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ (٣٧) ﴾ أم هو جاهل لم يخبر بما فى أسفار التوراة، وبما فى صحف إبراهيم الذى وفّى بما أمر به من غير إخلال أو إهمال ، وشدد الفعل (وفّى) للمبالغة فى الوفاء بما عاهد الله به .

وعن أبى ذر رضى الله عنه قال : قلت يا رسول الله ، كم من كتاب أنزل الله ؟ قال مائة كتاب وأربعة كتب ، أنزل الله على آدم عشر صحائف ، وعلى شيث خمسين

صحيفة ، وعلى إدريس ثلاثين صحيفة ، وعلى إبراهيم عشر صحائف، وأنزل التوراة والإنجيل والزبور والفرقان .

قلت : يا رسول الله : ما كانت صحف إبراهيم ؟

قال : كانت أمثالاً ، منها : أىّ الملك المبتلى المغرور ، إنى لم أبعثك فتجمع الدنيا بعضها إلى بعض ، ولكن بعثتك كيلا ترد دعوة المظلوم، فإنى لا أردها وإن كانت من كافر .

﴿ أَلاَّ تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ (٣٨) ﴾ أى : لا يؤاخذ أحد بذنب غيره، ليتخلص الثانى من عقابه.

والوازرة : هى التى يتوقع منها الوزر والحمل ، لا التى وزرت وحملت ثقلا، وانظر إلى الإيقاع الموسيقى المنبعث من هذه الكلمات التى اشتق بعضها من بعض:

وزر ، وازرة ، تزر ، وهو ما يسمى بجناس الاشتقاق .

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلإِنسَانِ إِلاَّ مَا سَعَىٰ (٣٩) ﴾ السعى : مشى دون العدو، ويستعمل للجد فى الأمر خيراً كان أو شراً ، أى : كما لا يؤاخذ أحد بذنب غيره ، فلا يثاب أيضاً بفعل سواه، فالآية بيان لعدم انتفاع الإنسان بعمل غيره من حيث جلب النفع له ، أو دفع الضرر عنه .

فالآية قصر جزاء الإنسان على سعيه ، قصر موصوف على صفة ، وليس له غير سعيه ، أما سعى الآخرين فلا يشمله خيرا كان أو شرا، كما أن عمله لا يشمهلم سواء أكان صالحاً أم طالحاً ، إلا أن يتفضل الله عليه بما لم يجب له ، حيث كتب بالحسنة الواحدة عشرا ، وقد تفضل الله على الأطفال بإدخالهم الجنة بغير عمل. فما كان السعى فمن طريق العدل والمجازاة ، وما كان من غير السعى فمن طريق الفضل والمنح، فكرم الله تعالى أوسع وأعظم من ذلك ، فإنه يضاعف الحسنات ويتجاوز عن السيئات .

﴿ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ (٤٠) ﴾ وسعى الإنسان عمله كما فى قوله تعالى : ﴿ إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّىٰ ﴾ الليل ٤ . وعمله سوف يعرض على الله يوم القيامة ، حيث يكشف له عن صحيفته وميزاته. وفى ذلك إشارة إلى أن الإنسان له مراتب فى السعي، وبحسب كل مرتبة يجد سعيه لا يزيد ولا ينقص ، وأثر هذا السعى ونتيجته حصول

الجنات التى تجرى من تحتها الأنهار، والحور والقصور والغلمان ، كما أخبر الله فى كتابه العزيز فى غير موضع .

﴿ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الأَوْفَىٰ (٤١) ﴾ أى يجزى الإنسان بجزاء عمله الجزاء الأوفر الأتم ، إن خيراً فخير وإن شرا فشر.

﴿ وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنتَهَىٰ (٤٢) ﴾ أى : انتهاء الخلق فى رجوعهم إلى الله بعد الموت ، لا إلى غيره ، لا استقلالا ولا اشتراكاً ، فيجازيهم بأعمالهم .

وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكَىٰ (٤٣) وَأَنَّهُ هُوَ أَمَاتَ وَأَحْيَا (٤٤) أضحك وأبكى : كنايتان عن السرور والحزن، أى أفرح وأحزن، لأن الفرح يجلب الضحك : والحزن يجلب البكاء.

و الضحك : انبساط الوجه ، من سرور النفس، ولظهور الأسنان عند الضحك سميت مقدمات الأسنان الضواحك، ويسمى الضحك ضحكاً، وإن لم يكن معه قهقهة.

و البكاء : سيلان الدمع عن حزن وعويل. أو عويل وإن لم يكن معه إسالة دمع.

فالله وحده هو الذى يضحك ويبكى. يضحك فى الدنيا أهل النعمة، ويبكى أهل الشدة والمصيبة ، أو أضحك المطيع بالرضا، وأبكى العاصى بالسخط.

أو أضحك فى الجنة أهلها، وأبكى فى النار أهلها . فحذف مفعول الفعل حتى تقدر النفس ما يحتمل التقدير، وتذهب فيه كل مذهب.

وقيل لعمر رضى الله عنه : هل كان أصحاب رسول الله (ص) يضحكون؟ قال: نعم ، والله والإيمان أثبت فى قلوبهم من الجبال الرواسي.

عن سماك بن حرب قال : قلت لجابر بن سمرة رضى الله عنه :

أكنت تجالس النبى (ص) ، قال : نعم ، وكان أصحابه يجلسون فيتناشدون الشعر، ويذكرون أشياء من أمر الجاهلية فيضحكون ، ويبتسم الرسول معهم إذا ضحكوا.

وكذلك هو وحده القادر على الإحياء والإماتة لا غيره لا مستقلاً ولا مشتركا.

أى أمات الآباء وأحيا الأبناء، أو أمات النطفة وأحيا النسمة، أو أمات النفس عن شهواتها ، وأحيا القلوب عن صفائها.

وقدم الإماتة على الإحياء ؛ لأن موت الجسد قبل حياته فى القبر ، أو لأن موت القلب قبل حياته ، أو لتعجيل أثر الموت لينتبه المخاطبون ، أو لأن العدم قبل الوجود، أو رعاية للفاصلة، حتى تسير نهاية الآية متزنة مع غيرها من الآيات الأخرى.

﴿ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ (٤٥) مِن نُّطْفَةٍ إِذَا تُمْنَىٰ (٤٦) ﴾ وأنه خلق الزوجين من كل حيوان ذكراً وأنثى، من نطفة وهى ماء الرجل عند الجماع يتدفق فى رحم المرأة، فتخصب وتحمل وتلد، وقدم الذكر لشرف منزلته، وعلو مكانته على المرأة ، ورعاية للفاصلة أيضاً.

﴿ وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَىٰ (٤٧) ﴾ وعلى الله سبحانه وحده الخلقة الأخرى ، وهى الإحياء بعد الموت وفاء بوعده، فالحكمة الإلهية تقتضى النشأة الثانية للجزاء والمكافأة، ليصل المؤمنون إلى كمالهم اللائق بهم، والكافرون إلى خسرانهم الجدير بهم.

﴿ وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ (٤٨) ﴾ أى : أغنى الناس بالأموال، وأعطاهم ما يقتنونه ويدخرونه بعد الكفاية وحذف المفعول هنا للعلم به.

﴿ وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرَىٰ (٤٩) ﴾ الشعرى : كوكب خلف الجوزاء، وكانت خزاعة تعبد الشعرى، وقد سنّ لهم ذلك أبو كبشة ، وهو رجل من أشراف خزاعة، قال لقومه : إن النجوم تقطع السماء عرضا، وهذه تقطعها طولاً، فليس شىء مثلها، فعبدتها خزاعة، وخالف أبو كبشة قريشاً فى عبادة الأوثان، ولذلك كانت تسمى قريش الرسول ابن أبى كبشة، يريدون به موافقته عليه السلام له فى ترك عبادة الأوثان ، وإحداث دين جديد. فالله هو رب الكواكب وخالق الشعرى التى تعبدها خزاعة، ورب جميع المخلوقات.

﴿ وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عَادًا الْأُولَىٰ (٥٠) وَثَمُودَ فَمَا أَبْقَىٰ (٥١) وَقَوْمَ نُوحٍ مِّن قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغَىٰ (٥٢) ﴾ عاد : هم قوم هود الذين أهلكوا بالريح الصرصر، وثمود : هم قوم صالح أهلكهم الله بالصيحة فلم يبق أحدا من قوم هود، ولا من قوم صالح، ولم يترحم عليهما أحد؛ لأن الترحم يكون لأهل اللطف دون القهر ، ومن قبل أن يهلك قوم هود وقوم صالح أهلك قوم نوح؛ لأنهم كانوا أظلم لنبيهم وأطغى من الفريقين ،

حيث كانوا أحياناً يضربونه عليه السلام ، حتى يبقى دون حراك، ولم تؤثر دعوته فيهم رغم أنه عمر ألف سنة تقريباً، وما آمن معه إلا قليل.

﴿ وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوَىٰ (٥٣) فَغَشَّاهَا مَا غَشَّىٰ (٥٤) ﴾ والمؤتفكة : هى قرى قوم لوط عليه السلام ائتفكت بأهلها أى انقلبت بهم، وأهوى : أسقطها إلى الأرض مقلوبة بعد أن رفعها على جناح جبريل إلى السماء فغشاها من فنون العذاب ما غشى، وكرر التغشية لتدل على ما أصاب أهل هذه القرى من السهول والفظاعة ما لا غاية وراءه.

﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكَ تَتَمَارَىٰ (٥٥) ﴾ الآلاء : النعم ، وهى جمع إلىً، والممـاراة : الجدال والخصام فيما فيه شك وتردد.

والخطاب وإن كان لرسول الله (ص) إلا أن فيه تعريضاً للغير على طريقة قوله تعالى : ﴿ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ ﴾ الزمر ٦٥.

أى إذا عرفت يا محمد هذه العقوبات التى أصابت أقوام الأنبياء لتكذيبهم. فبأى نعمة من نعم ربك تتشكك بأنها ليست من عند الله ، فكما نصرت إخوانك من الأنبياء الماضين، ونصرت أولياءهم، وهلكت أعداءهم، فكذلك أنصرك على قومك المشركين ، فلا يكن فى قلبك حرج مما رأيت من إصرار قومك وعنادهم واستكبارهم.

﴿ هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ النُّذُرِ الْأُولَىٰ (٥٦) ﴾ هذا إشارة إلى الرسول عليه السلام ، والنذير بمعنى المنذر، فالرسول نذير من جنس المنذرين الأولين، وقال « الأولى » دون الأولين مراعاة للفاصلة . وتنكير «نذير » للتفخيم.

﴿ أَزِفَتِ الْآزِفَةُ (٥٧) لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ (٥٨) ﴾ أزفت الآزفة : أى رنت الساعة واقترب يوم القيامة ، والأزف : ضيق الوقت ، فقد اقتربت الساعة، وتماثل الفعل والفاعل فى الحروف جناس أريد به التأكيد وتقرير الإنذار ، وأن الساعة واقعة لاشك فى ذلك.

وفى الآية تعظيم للرسول حيث إن تعذيب المشركين مؤخر إلى يوم القيامة وإن كانوا معذبين فى الدنيا أيضا.

« ليس لها من دون الله كاشفة » ولا يقدر أحد على إزالتها وردها عند وقوعها

فى وقتها المقدر لها إلا الله ، لكنه لا يكشفها. وفى القرآن الكريم ﴿ لا يُجلِّيها لِوَقْتِها إلاَّ هُوَ ﴾ الأعراف ١٨٧.

﴿ أَفَمِنْ هَذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (٥٩) ﴾ أى أتتعجبون إنكارا للحديث عن القيامة ووقت الساعة، وحالة العجب هذه كثيرا ما تعرض الإنسان عند الجهل بسبب الشىء، والاستفهام هنا للتعجب.

﴿ وَتَضْحَكُونَ وَلا تَبْكُونَ (٦٠) ﴾ وتضحكون استهزاء مع كونه أبعد شىء من ذلك، ولا تبكون حزنا على ما فرطتم فى شأنه، ولا خوفا من أن يحيق بكم ما حاق بغيركم من الأمم الماضية وتضحكون استعارة للسخرية ، تقول ضحكت منه أى سخرت.

وعن أبى هريرة رضى الله عنه لما نزلت هذه الآية، بكى أهل الصُفَّة: وهم فقراء المهاجرين الذين كان يرعاهم رسول الله، كانوا يأوون إلى ظلّه فى مسجد المدينة ، بكوا حتى جرت دموعهم على خدودهم ، فلما سمع الرسول حنينهم بكى معهم فبكينا لبكائه، فقال عليه السلام « لا يلج النار من بكى من خشية الله ، ولايدخل الجنة مصرٌّ على معصية الله، ولو لم تذنبوا لجاء الله بقوم يذنبون ثم يغفر لهم ».

﴿ وَأَنتُمْ سَامِدُونَ (٦١) ﴾ أى لاهون ، مستكبرون ، أو مغنّون لتشغلوا الناس عن الاستماع للرسول .

﴿ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا (٦٢) ﴾ وإذا كان الأمر كذلك، فاسجدوا لله الذى أنزل القرآن ، واعبدوه ولا تعبدوا غيره من ملك أو بشر، فضلاً عن جماد لا يضر ولا ينفع كالأصنام والكواكب.

وهذه الآية فيها سجدة التلاوة ، فقد صح عن رسول الله أنه سجد بعد تلاوة هذه السورة على قريش ، سجد وسجد معه الإنس والجن.

* * *

سورة القمر

بسم الله الرحمن الرحيم

السورة مكية بالاتفاق ، وآياتها خمس وخمسون إلا الآيات ٤٤، ٤٥، ٤٦، فمدنية نزلت بعد سورة الطارق، وسميت سورة القمر ؛ لاشتمالها على ذكر انشقاق القمر.

ومن مقاصد السورة : التخويف بهول يوم القيامة ، والشكوى من عبادة أهل الضلالة، وذلهم فى وقت البعث وقيام الساعة، وخبر الطوفان ، وهلاك الأمم المختلفة، وحديث قوم عاد ونكبتهم ، وقصة ناقة صالح، وإهلاك جبريل قوم صالح بالصيحة، وحديث قوم لوط، وتماديهم فى المعصية، وحديث فرعون وإسرافه فى الجهالة، وتأكيد القضاء والقدر ، وإظهار علامة القيامة، وبروز المتقين فى الجنة.

ومن فضل سورة القمر قوله عليه السلام لعلىّ، يا على من قرأ « اقتربت الساعة » فكأنما قرأ القرآن كله، وكتب له بكل آية قرأها ثواب الدال على الخير.

ونذكر المعنى أولاً على سبيل الإجمال، ثم بعد ذلك نفصل القول تفصيلاً يفى بالمراد إن شاء الله .

﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ ۝١ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ۝٢ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ۝٣ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ۝٤ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ۝٥ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ۝٦ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ ۝٧ مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَٰذَا يَوْمٌ عَسِرٌ ۝٨ ﴾

هذه السورة مكونة من عدة أقسام كل قسم منها صورة من العذاب الذى اصطلى به المكذبون .

وفى أول السورة حديث عن القيامة واقتراب وقتها ، وقد حصل من علامات

الاقتراب أن القمر قد انشق، حتى قال ابن مسعود رضى الله عنه : «رأيت حراء بين فلقتى القمر » وإن كان بعض الناس ينكر ذلك، إذ لو انشق لما خفى على أحد وتناقله الناس، ولكن هذا ليس دليلاً على صحة الإنكار ؛ إذ يجوز أن يحجبه الله عنهم بغيم ، ولكن هذا هو دأب أهل مكة إذا رأوا آية تدل على صدق محمد «صلى الله عليه وسلم» أعرضوا عن الإيمان بها وقالوا إنها مجرد سحر محكم دائم، واتبعوا ما يزينه لهم شيطانهم من دفع الحق، والتمسك بالباطل، وليس هذا وحده ماأنكروه؛ بل أنكروا الأنباء التى وردت عن الأمم السابقة، وفيها من الحكمة البالغة والإنذار الشديد الذى كان عليهم أن يعرفوه، ولكن هذه الإنذارات جميعاً لم تثنهم عن كفرهم وبعدهم عن الحق، فالإنذار لا يغنى عنهم شيئا، فدعهم فى غيهم واتركهم يوم يدعوهم إسرافيل إلى شىء فظيع تنكره النفوس؛ لأنها لم تعهد مثله ، أى الأهوال التى يراها هؤلاء الكفار يوم القيامة، يأتون أذلاء، خارجين من قبورهم فى كثرة وتفرق كأنهم جراد منتشر، يمدون أعناقهم إلى الداعى مترقبين خائفين مما سوف يحدث لهم ، ويفيض ألمهم وعذابهم على ألسنتهم فيقولون هذا يوم صعب شديد، صعب فى حسابه ، شديد فى عذابه ، بحيث لا تطيقه النفس، ولا يحتمله الجسد.

﴿ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ (١) ﴾ الساعة : جزء من أجزاء الزمان أراد بها القيامة مجازا لما بينهما من مشابهة فى سرعة الحساب ، أو لأنها ساعة خفيفة يحدث فيها أمر عظيم.

والمعنى : دنت القيامة وقرب قيامها ووقوعها؛ لأنه ما بقى من الدنيا سوى القليل، والاقتراب يدل على مضىّ الأكثر، وسيمضى الأقل عن قريب كما مضى الكثير.

وقد اقتربت الساعة، وحصل من علامات اقترابها أن القمر قد انشق ، وعلى هذا عامة الصحابة ومن بعدهم ، وبه أخذ كثير من المفسرين ، ولا عبرة بقول القائل : إنه سينشق يوم القيامة ، وعبر بصيغة الماضى (انشق) دلالة على تحقق الانشقاق فى زمن النبى (ص).

يقول بعض المفسرين : اجتمع بعض صناديد قريش فقالوا : إن كنت صادقاً فشق لنا القمر فرقتين ، ووعدوا الإيمان، وكانت ليلة البدر، فرفع عليه السلام

إصبعه، وأمر القمر أن ينشق نصفين، فانفلق شقين، شق ذهب عن موضع القمر ، وشق بقى فى موضعه ، ولم يختص برؤية القمر منشقاً أهل مكة؛ بل رآه على صورة الانشقاق جميع أهل الآفاق ، وإن كان لا يستبعد اختفاؤه عن قوم دون قوم بسبب غيم، أو أى شىء آخر يمنع رؤيته. فانشقاق القمر كان صحيحاً.

والمعنى : وضح الأمر واستبان ؛ لأنه عند اقتراب الساعة ينكشف كل خفى ويستبين الحق من الباطل من كل وجه. وعطف الجملتين إحداهما على الأخرى لما بينهما من مماثلة فى الفعلية والزمان الماضي.

﴿ وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ ﴿٢﴾ ﴾ أى وإن رأت قريش علامة من آيات الله تدل على قدرته وصدق نبيه مثل انشقاق القمر، أعرضوا عن التأمل فيها ليقفوا على حقيقتها فيؤمنوا، ويقولوا هذا سحر يأتى به محمد لا يكاد يختلف عن سائر أنواع السحر ، فالاستمرار بمعنى الاطراد، مما يدل على أنهم رأوا قبل هذه المعجزات معجزات أخرى للنبى ﷺ، ونكر آية للدلالة على عدم تعينها ، وقالوا «سحر مستمر » استهزاء بالمعجزات.

﴿ وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣﴾ ﴾ فكذبوا بالنبى وما عاينوه من معجزات أظهرها الله على يديه، واتبعوا أهواءهم التى زينها الشيطان لهم، وقالوا سحر القمر ، أو سحر أعيننا ، والقمر بحاله لم يصبه شىء.

وعبر فى هذه الآية بصيغة الماضى على خلاف الآية السابقة لها فقد عبر بصيغة المضارع ، للإشعار بأن التكذيب واتباع الهوى من عادتهم القديمة التى درجوا عليها وألفوها، وفى ذلك إشارة إلى المستغرقين فى حب الدنيا وبحار شهواتها، فإذا ظهرت دعوة الحق على يد رسول أعرضوا عنها ولم يلتفتوا إليه؛ بل زادوا فيما هم فيه من حب الدنيا ومتابعة الهوى ورموا الرسول بالكذب. ويتضح من هاتين الآيتين جواز عطف الفعل الماضى على الفعل المضارع دون إخلال بالبلاغة.

(وكل شىء مستقر) وثابت على حالة الخذلان أو النصرة فى الدنيا، والسعادة أو الشقاء فى الآخرة، والشىء إذا انتهى إلى غاية ثبت واستقر، فالاستقرار كناية عن الانتهاء إلى غاية ، وفى هذا وعيد للمشركين ، ووعد للمؤمنين .

﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الْأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ④ ﴾ وبالله لقد جاء أهل مكة فى القرآن من الأخبار ذوات الفوائد العظيمة التى تتضمن أنباء القرون الخالية ، التى تتضمن الزجر بالعذاب أو الوعيد بالهلاك، والتعبير القرآنى دقيق للغاية، فليس فى أنباء القرون الخالية ازدجار أو تخويف؛ بل هى فى نفسها زجر وتخويف ، وهو ما يسمى بالتجريد عند علماء البلاغة، كقوله تعالى ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ الأحزاب ٢١، والرسول هو فى نفسه الأسوة الحسنة.

يقال : زجره : نهاه عن السوء ووعظه ، أو الزجر: طرد بصوت ، وقوله «مزدجر» أى طرد ومنع عن ارتكاب المأثم.

﴿ حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ ⑤ ﴾ حكمة بالغة ، أى متناهية فى الحكمة لا خلل فيها ، وقد بلغت الغاية فى الإنذار والموعظة.

والحكمة : إصابة الحق بالعلم والفعل . فالحكمة من الله : إيجاد الأشياء على غاية الإحكام .

ومن الإنسان : فعل الخيرات وإذا وصف القرآن بالحكيم فلتضمنه الحكمة وهى علمية وعملية .

(فما تغنى النذر) أى لم تغن النذر شيئا. فما هنا نافية. ويمكن أن تكون استفهاماً إنكارياً، والمعنى : أىّ إغناء تغنى النذر إذا خالفوا أو كذبوا ، أى لا تنفع .

﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَىٰ شَيْءٍ نُّكُرٍ ⑥ ﴾ حذفت الياء من الداع ، وأصلها: الداعى ، مبالغة فى التخفيف .

والداعى : إسرافيل عليه السلام ينفخ فى الصور يدعو الأموات وينادى قائلاً: أيتها العظام البالية ، واللحوم المتمزقة ، والشعور المتفرقة ، إن الله يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء ، فالدعاء مستعمل فى حقيقته .

ويمكن أن نعتبر الدعاء مجازاً بأن لا يكون ثمة داع من إسرافيل أو غيره؛ بل يكون الدعاء عبارة عن نفاذ مشيئة الله ، وعدم تخلف إرادته ، وهذا الداعى يدعو إلى شىء منكر فظيع تنكره النفوس لعدم إلفها له، وهو هول يوم القيامة .

﴿ خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ (٧) ﴾ أى يخرجون من قبورهم أذلة أبصارهم من شدة الهول، خاضعة عند رؤية العذاب . والخشوع : الضراعة ، وأكثر ما يستعمل فى الجوارح .

وخص الأبصار بالخشوع ، لأن الخشوع فى الأبصار أظهر منه فى سائر الجوارح، وكذلك الحياء والخوف والقلق ونحوه إنما يظهر فى البصر.

وشبه ازدحامهم وقت خروجهم من القبور، بالجراد المتموج المتفرق فى الأقطار، وشبههم بالجراد ، لجرده الأرض من النبات، يقال أرض مجرودة، أى أكل ماعليها حتى تجردت .

﴿ مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ (٨) ﴾ (مهطعين إلى الداع) أى مسرعين إلى جهة الداعى مادّى أعناقهم إليه، مثبتين أبصارهم نحوه.

يقال هطع الرجل: إذا أقبل ببصره على الشىء لا يقلع عنه ، وفيه إشارة إلى ذلة النفوس.

(يقول الكافرون) كأنه إجابة عن سؤال مقدر أى فماذا يكون حينئذ؟

(هذا يوم عسر) صعب شديد علينا، فيمكثون بعد الخروج من القبور واقفين، يقولون : أرحنا من هذا ولو إلى النار ، ثم يؤمرون بالحساب.

وأسند القول إلى الكافرين ، لأن المؤمنين ليسوا فى تلك المرتبة من الشدة، بل ذلك اليوم يوم يسير عليهم ببركة إيمانهم وأعمالهم .

ثم ذكر لأهل مكة قصة نوح إمعاناً فى التخويف ، وردعاً لهم حتى يثوبوا إلى الدعوة الرشيدة، وأملاً فى الخروج عن الكفر.

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ (٩) فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ (١٠) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢) وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ (١٤) وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (١٥) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (١٦) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (١٧) ﴾ ٩ - ١٧.

فقد كذبت قبلكم يا أهل مكة قوم نوح النبى نوحا، واتهموه بالجنون، وزجروه بالشتم وهددوه بالقتل، وعندما غلبه قومه واستحكم اليأس من إيمانهم، دعا ربه أن ينتقم منهم بعذاب لا طاقة لهم به ، ففتح الله عليهم أبواب السماء، فانهمر الماء ، وفجر الأرض حتى صارت كلها عيوناً تضخ الماء، فالتقى ماء السماء وماء الأرض، فماتوا غرقا، ولكن الله نجى نبيه نوحاً، فحملته سفينته وحفظه الله من الهلاك والغرق، وكان هذا جزاء لمن كفر بنبى من أنبياء الله.

وتركنا سفينة نوح حتى يتعظ بها من ينفعه الوعظ، ويفيده الاعتبار.

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنَا وَقَالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ (٩) ﴾ وأخذ القرآن فى تسلية الرسول محمد عليه السلام بتعداد بعض الأنباء الموجبة للزجر فقوم نوح كذبوه ، ذكر ذلك أولاً بصفة مبهمة ، ثم وضح بعد ذلك فقال : كذبوا عبدنا . على جهة التفصيل ، بعد ما ذكره مجملا فقال كذبت قبلهم قوم نوح، أى كذبت نوحاً.

وإضافة العبودية إلى نون العظمة (عبدنا) تفخيم له عليه السلام ورفعة لمحله، وزيادة تشنيع لمكذبيه . وعبر بلفظة العبد، إرادة لتواضع الرسول فى غير تملق، فإن التملق لا عبرة له. وجميع الرسل عليهم السلام سمتهم التواضع، وإذا كان محمد قال : « أنا سيد ولد آدم ولا فخر » أى ليس الفخر لى بالرسالة وإنما الفخر بالعبودية ، وقالوا فى حق نوح «مجنون »، نسبوه إلى الجنون واختلال العقل، ولم يقتصروا على التكذيب، وزجروه عن التبليغ بكل أنواع الأذية كالشتم والضرب والوعيد بالرجم وغير ذلك.

﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ (١٠) ﴾ لما زجر القوم نوحا عن الدعوة دعا ربه أنه مغلوب من جهة قومه، وليس له بهم طاقة ، ولا قدرة على الانتقام منهم، فانتقم لى منهم، وذلك بعد أن تقرر يأسه، وقد روى أن الواحد منهم كان يلقاه فيخنقه حتى يخر مغشيا عليه، فإذا أفاق قال: اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون ، ولما أذن الله بإهلاكهم استجاب لدعوة نوح ، ﴿ وَلَقَدْ نَادَانَا نُوحٌ فَلَنِعْمَ الْمُجِيبُونَ ﴾ الصافات ٧٥.

﴿ فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ (١١) ﴾ أى وفتحنا أبواب السماء وطرقها ، بسبب اندفاع الماء الكثير المنصب انصبابا شديدا كأنه منصب من أفواه القرب، لم ينقطع أربعين يوما، وكان مثل الثلج بياضاً وبردًا، وفى الآية تمثيل لكثرة الأمطار

وشدة انصبابها بجعل الماء ينهمر من أبواب السماء. حيث جعل للسماء أبوابا، أراد أن يقرب الأمر على المشركين والمؤمنين. والهمر : صب الدمع والماء ، ومنهمر : منسكب .

﴿ وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢) ﴾ أى : جعلنا الأرض كلها كأنها عيون متفجرة تجرى بماء كالحميم حرارة. وأصله : وفجرنا عيون الأرض، ولكنه أراد المبالغة، فقال : وفجرنا الأرض عيوناً أى فجرنا أجزاء الأرض كلها، بجعلها جميعها عيوناً ، ولاشك فى أنه أبلغ.

فالتقى ماء السماء وماء الأرض، وارتفع على أعلى جبل فى الأرض، وقال : فالتقى الماء ، ولم يقل : فالتقى الماءان، لتأكيد أن التقاء الماءين لم يكن بطريق المجاورة؛ بل كان بطريق الاتحاد والاختلاط ، فصارا ماء واحدا، على حال قدرة الله، وهو هلاك قوم نوح بالطوفان . وأكد ذلك بدخول قد على الفعل « قد قدر ».

﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣) ﴾ أى حملنا نوحاً ومن آمن معه على سفينة صنعت من أخشاب عريضة، والألواح : جمع لوح، وكانت سفينة نوح مصنوعة من خشب الجوز، وكنى عن السفينة بقوله ذات ألواح ودسر، والدسر: جمع دسار ، وهو الدفع الشديد، يقال : دسره بالرمح دفعه دفعاً شديدا، والمراد بالدسر : المسامير.

﴿ تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ (١٤) ﴾ أى تجرى السفينة بمرأى منا ، وتحت رعايتنا وحفظنا ، والتعبير هنا بالأعين تعبير كنائى لم يقصد به العيون المعروفة المبصرة؛ لأن الله ليس مشابها للحوادث جل شأنه . وفعلنا ذلك من حفظنا لنوح وإهلاكنا لقومه من المعاندين ، أجرا وثوابا لنوح، لأنه كان نعمة كفروها وأنكروها ، فكان نوح نعمة مكفورة.

﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (١٥) ﴾ أى : ولقد تركنا السفينة على الجودى دهراً طويلاً حتى نظر إليها أوائل هذه الأمة، وكثير من السفن صنعت بعد سفينة نوح صارت رمادا فى علم الغيب وليس لها أثر. فهل من معتبر بتلك الحقيقة ، متعظ بهذه الآية ، فيخاف من عذاب الله، وينأى عن المعاصي، والاستفهام هنا للتعجب، حيث يتعجب من عدم اتعاظهم بتلك الحادثة .

﴿ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٦﴾ ﴾ استفهام فيه معنى التعظيم والتعجب، أى كان العذاب لقوم نوح والإنذار لمن يعرف أخبارهم من الأمم اللاحقة، وخاصة قريش، ونلاحظ أنه قد أفرد العذاب وجمع الإنذار، إشارة إلى غلبة الرحمة، لأن الإنذار إشفاق ورحمة، أى أن الإشفاق والرحمة تواتر عليهم ، فلما لم يعتبروا به وقع العذاب مرة واحدة، فكانت النعمة كثيرة، والنقمة واحدة.

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾ دخول اللام على قد يفيد التأكيد والقسم ، أى وبالله لقد سهلنا القرآن لقومك يا محمد ، فأنزلناه بلغتهم، وضمناه بأنواع من المواعظ والعبر، وذكرنا فيه الوعد والوعيد لكى يتذكروا ويتعظوا،. ولكنهم لم يتذكروا ولم يتعظوا (فهل من مدكر) والاستفهام هنا إنكارى تعجبى، أى ليس هناك من يتذكر ، وليس هناك من يستطيع أن يجيب بنعم ، فهو إنكار بأبلغ وجه، حيث ذكره فى صورة الاستفهام، وليس استفهاماً فى الحقيقة .

وهذه العبارة (فهل من مدكر) قد ختم بها قصة نوح وعاد وثمود ولوط، لما فى كل قصة منها من التخويف والتحذير مما حلّ بهم فيتعظ به كل من يقرأ القرآن، ويعظ غيره، ونسأل الله أن يعصمنا من الزيغ والضلال والزلل.

وذكر قصة أخرى، قصة عاد الذين كذبوا نبيهم هودا عليه السلام، فأهلكهم إليه بالريح الباردة ذات الصوت الشديد، واستمرت هذه الريح حتى أهلكتهم ، وفى إهلاكهم عبرة وعظة، فقد كات تنتزعهم من أماكنهم التى احتموا فيها ، كما تنتزع الشجرة من أصولها ، وتلقى بهم خارجها، فيتساقطون أمواتا، وهذا هو العذاب الذى لقيه العصاة الكافرين بالنبى هود.

يصور القرآن هذا المشهد المخيف بقوله :

﴿ كَذَّبَتْ عَادٌ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿١٨﴾ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ ﴿١٩﴾ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ ﴿٢٠﴾ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٢١﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٢٢﴾ ﴾

عاد : وهم قوم هود كما ذكرنا من قبل، كذبوا هودا عليه السلام، ولم يذكر كيف كان تكذيبهم ، طلباً للاختصار ، ومسارعة إلى بيان ما فى هذا التكذيب من

الزجر والعذاب ، (فكيف كان عذابى ونذر) أى انظروا أيها المستمعون كيف كان عذابى لهم، وكيف كان مصيرهم، أراد بذلك أن يتوجه إلى قلوب السامعين ليصغوا إلى ما يلقى إليهم ، وشد انتباههم قبل أن يلقى إليهم ما صاروا إليه، ليثبت الإنذارات والعذاب فى أذهانهم، وهذا شأن كل من يكذب بالرسل ويلاقيهم بالعناد والإصرار على الكفر، ولم يرد أن يهول من أمر العذاب، أو يعظم من شأن الإنذارات، أو يتعجب من أحوالهم كما فى الآيات السابقة أو اللاحقة ، وإنما فقط أراد أن يجذب قلوبهم لينتبهوا إلى ما يلقى إليهم.

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ (١٩) ﴾ أجمل العذاب أولاً، ثم بينه فى هذه الآية بأن الله سلط عليهم ريحاً باردة، شديدة الصوت والهبوب فى يوم شؤم مستمر فى شؤمه أبد الدهر، واشتهر بين بعض الناس التشاؤم بالأربعاء الأخير من كل شهر، وكانت هذه الريح الشديدة شاملة لجميعهم كبيرهم وصغيرهم على حد سواء، والنحس: ضد السعد، والصرصر من الصرّ: وهو البرد ، أو من صر الباب أو القلم، أى : صوت . فوصف الريح بأنها صرصر، والنحس بأنه مستمر.

﴿ تَنزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ مُّنقَعِرٍ (٢٠) ﴾ وكانت هذه الرياح تقلعهم من الحفر التى اختفوا فيها وتمسكوا بها وتصرعهم موتى، منتزعة أرواحهم من أجسادهم ، ويقال إن هذه الرياح دامت سبع ليال وثمانية أيام كيلا ينجو منهم أحد، سواء احتمى بكهف أو سرب أو حفرة، وسواء أكان ظاهراً أم مستتراً، ولذلك فإن هذا اليوم النحس لم يقصد به اليوم الواحد، وإنما قصد به الحين حتى يستمر سبع ليال وثمانية أيام .

(كأنهم أعجاز نخل منقعر) الإعجاز جمع عجز، وعجز الإنسان مؤخرته، ومنه العجز؛ لأنه يؤدى إلى تأخر الأمور. والنخل: اسم جنس يفرق بينه وبين واحدة بالتاء ، والمنقعر : المنقلع عن أصله .

والمعنى : أن هؤلاء القوم اجتثوا كما اجتث النخل الذاهب فى قعر الأرض، فلم يبق لهم رسم ولا أثر.

وشبهوا بأعجاز النخل، وهى أصولها بلا فروع؛ لأن الريح كانت تقتلع رءوسهم فتبقيهم أجساداً بلا رءوس.

وفيه إشارة إلى قوتهم وثباتهم فى الأرض، فكأنهم يجعلون أرجلهم غائرة فى الأرض يقصدون بذلك مقاومة الريح، والريح عندما صرعتهم كأنها قلعت أعجاز نخل منقعر.

يقول أحد المفسرين : إن الريح صرعتهم وكبّتهم على وجوههم كأنهم أصول نخل منقلعة عن الأرض، فشبههم لطولهم بالنخل الساقط.

وذكر وصف النخلة فقال : نخل منقعر ، نظراً إلى اللفظ، وقال فى سورة الحاقة ﴿أعجاز نخل خاوية ⑦﴾ بالتأنيث نظرا إلى المعنى.

﴿فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ⑳﴾ تهويل وتعجيب من أمرهما بعد بيانهما ، وليس فيه تكرار، وقيل : الأول: لتحذيرهم قبل هلاكهم، والثانى لتحذير غيرهم بعد هلاكهم.

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ㉒﴾ فعلى العاقل أن يتذكر بهذه الذكرى ، ويعتبر بهذه الآية الكبرى.

﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ ㉓ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ ㉔ أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ ㉕ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الأَشِرُ ㉖ إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ ㉗ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ ㉘ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ ㉙ فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ ㉚ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ ㉛ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ㉜﴾

وأيضا كذبت ثمود صالحاً عليه السلام ، وزعموا أنهم إذا اتبعوه أصبحوا فى ضلال عن الحق، وبعد عن الصواب، وأبدوا دهشتهم، إذ كيف ينزل عليه الوحى دونهم وفيهم من هو أفضل، وأحق بالنبوة، وبالغوا فى دعواهم فاتهموه بالكذب والطمع، ولكنهم هم الكاذبون الطامعون، وسيعلمون فيما بعد من هو الكذاب الطماع، أصالح أم هم.

وقد امتحنهم الله سبحانه، فأخرج لهم ناقة من الهضبة ليختبرهم، وانتظر. عليهم ماذا يصنعون يا صالح، أخبرهم بأن الماء قسمة بينهم وبينها لها يوم تشرب،

ولهم يوم يشربون فيه، ولكنهم أوعزوا إلى شقى منهم أن يعقر الناقة فعقرها بسيفه، فأهلكهم الله بصيحة جبريل عليه السلام، وأصبحوا كشجر يابس متهشم كالذى يراه الناس فى حظائر البهائم. فهل تتعظون يا أهل مكة بما حدث من أسلافكم الكفرة العصاة.

﴿ كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ (٢٣) ﴾ أى كذبت ثمود بالإنذارات التى سمعوها من صالح عليه السلام، وتكذيبهم بأحد الرسل هو تكذيب لجميع الرسل؛ لاتفاقهم على الشرائع.

﴿ فَقَالُوا أَبَشَرًا مِّنَّا وَاحِدًا نَّتَّبِعُهُ إِنَّا إِذًا لَّفِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٢٤) ﴾ انكروا أن يكون الرسول بشرا مثلهم ، فردا واحدا، فالتنكير هنا يفيد الجنسية والوحدة التى تمنع اتباعهم ، فهو واحد من آحادهم لا من إشرافهم ، وهو بشر مثلهم وليس من جنس آخر يفضلهم ، فكيف يتبعونه، وهل كان فى ظنهم أن الرسول يكون ملكا أو إلها، وليس مجرد بشر؟ إننا لو اتبعناه وهو فرد ونحن أمّة، وهو بشر وليس بملك ، إنا إذا لفى ضلال عن الصواب وجنون ، وبمعزل عن الحق والعقل.

وسعر : نيران، جمع سعير.

﴿ أَؤُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ (٢٥) ﴾ أأنزل عليه الوحى من دوننا، وفينا من هو أحق بذلك. أليس هذا مما يدعو إلى الإنكار، ولماذا خص صالح بالرسالة من بين آل ثمود، وفيهم من هو أكثر مالا وأحسن حالا؟ بل هو كاذب مبالغ فى كذبه، أشر بطر، حمله بطره على الترفع علينا بما ادعاه.

والأشر : المتجبر ذو النشاط العظيم ، يقال فرس أشر، إذا كانا نشيطا.

﴿ سَيَعْلَمُونَ غَدًا مَّنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ (٢٦) ﴾ الغد : هو اليوم التالى ليومك، والمراد وقت نزول العذاب فى المستقبل ، لايوم بعينه.

والمعنى : سيعلمون قريبا من الكذاب الأشر الذى حمله أشره وبطره على الترفع والتجبر، أصالح أم من كذبه؟ وفيه تشريف للنبى صالح ، حيث نزهه الله عن صفات الكذب والأشر اللذين نسبوهما إليه، أى لست أنت الكذاب الأشر، بل هم الذين يوصفون بهاتين الصفتين.

﴿ إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَّهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ (٢٧) ﴾ روى أنهم سألوا صالحا، وهم متعنتون فى سؤالهم أن يخرج لهم من صخرة منعزلة فى ناحية من الجبل ناقة حمراء عشراء – وهى التى مضى عليها عشرة أشهر منذ أن أرسل عليها الفحل – فأوحى الله إليه ، أنه سيخرج الناقة لهم بالأوصاف التى ذكروها وأخرجها لهم «فتنة لهم » وامتحانا؛ لأن المعجزة محنة واختبار، إذ بها يتميز الطائع من العاصي، والمؤمن من الكافر، فانتظرهم يا صالح وانظر إليهم ماذا يصنعون واصبر على أذاهم صبراً جميلاً.

﴿ وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْمَاءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُّحْتَضَرٌ (٢٨) ﴾ وأخبرهم أن الماء مقسم بينهم وبين الناقة ، لهم يوم ولها يوم ، وقال بينهم تغليباً للعاقل على غير العاقل (محتضر) أى يحضره صاحبه فى نوبته ، فجعل الشرب بينهم على طريق المناوبة، يحضره القوم يوماً وتحضره الناقة يوما، وقسمة الماء، إما لأن الماء كان قليلاً، فلا يطغون على شربها، وإما لأن الناقة عظيمة الخلق تنفر منها حيواناتهم ، فتطغى على شربهم.

﴿ فَنَادَوْا صَاحِبَهُمْ فَتَعَاطَىٰ فَعَقَرَ (٢٩) فَكَيْفَ كَانَ عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٠) ﴾ أى نادى قوم ثمود صاحبهم قُدار بن سالف ، كانوا يتشاءمون منه ، ولذا كانت العرب تسمى الجزار قدارا تشبيهاً له بقدار بن سالف، لأنه كان عاقر الناقة، وكان قصيرا أشقر شريرا محتقراً بين قومه، فاجترأ صاحبهم على تعاطى الأمر العظيم غير مكترث له فعقر الناقة. وعبر بـ « تعاطى » مجازا عن الاجتراء .

والعقر : أن يضرب بالسيف قوائم الناقة ، وكان نتيجة ذلك أن عذبهم الله عذاباً شديداً كان فيه إنذار لمن جاء بعدهم.

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَكَانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ (٣١) ﴾ الهشيم بمعنى المهشوم، أى المكسور ، وهو اليابس المتكسر من الشجر؛ وغيره، والمحظور : الممنوع ، والمحتظر: الذى يعمل الحظيرة من الشجر للإبل لتقيها البرد والريح. أى: أرسلنا عليهم صيحة جبريل عليه السلام، لأنها هى الجزاء الذى يتفق وأفعالهم، وصاروا بسبب تلك الصيحة كالحشيش اليابس الذى يجمعه صاحب الحظيرة لما شببته ، بعد أن كانوا فى نضارة حال وطيب عيش.

﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٣٢) ﴾ وقد ذكرنا قصة الناقة وما صنعه قوم صالح بها وكيف عاقبهم الله سبحانه على هذه الفعلة السيئة وتكذيبهم لرسولهم صالح عليه السلام، ذكر هذه القصة لكى يتعظ بها الذين يكذبون الرسول، أىّ رسول كان، حتى يعلموا أن عاقب التكذيب بالرسل هو الهلاك حتما.

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ (٣٣) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ (٣٤) نِّعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَٰلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ (٣٥) وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ (٣٦) وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٧) وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ (٣٨) فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ (٣٩) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٤٠) ﴾.

وانتقل القرآن إلى حادثة أخرى، فتحدث عن قوم لوط، وقد أهلكهم الله بريح تحصبهم بالحجارة، وقلب قراهم وجعل عاليها سافلها، فقد كانوا يأتون الفاحشة فى ذكورهم، بل طلبوا الفاحشة فى أضياف الرسول لوط، ولكن الله أعماهم عن ذلك، ومسح أعينهم وجعلها كسائر الوجه، فقد كان أضياف لوط من الملائكة، وهكذا أهلك الله قوم لوط العاصين، ولم ينج منهم إلا ابنتيه ومن آمن معه؛ لأنهم شكروا نعمة الله بالإيمان والطاعة وابتعدوا عن الفسق والفجور.

﴿ كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ (٣٣) إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَّجَّيْنَاهُم بِسَحَرٍ (٣٤) ﴾ وعندما كذب آل لوط بالإنذارات وبالمنذرين ، أرسلنا عليهم ريحاً ترميهم بالحصباء وهى حجارة دون ملء الكف، والحصب: الرمى بالحصى الصغار، ولعل سر تعذيبهم بالحجارة، أنهم حجروا ومنعوا من اللواطة فلم يمتنعوا ، بل رموا نطفهم إلى غير محمل الحرث، فرماهم الله بالحجارة، ويقال : إنهم كانوا يجلسون فى مجالسهم وعند كل رجل منهم قصعة فيها حصى، فإذا مر بهم عابر سبيل قذفوه بالحصى، فأيهم أصابه كان أولى به . وأما الريح فلأنهم كانوا يضرطون علانية فى مجالسهم ولا يتحاشون . وأما انقلاب قراهم، فلأنهم قلبوا الحقيقة وعكسوها، بأن تركوا محل الحرث وأتوا الأدبار.

ولم ينج من هذا الإثم وهذا العذاب إلا آل بيت لوط، وكانوا ثلاثة عشر منهم ابنتيه ومن آمن به من أزواجهن، نجاهم الله فى سحر من الأسحار، والسحر هو آخر

الليل حين يختلط ظلام الليل بأول النهار وصفائه، وهذا سر تنكير سحر دون تعريفه.

﴿ نِعْمَةً مِّنْ عِندِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَن شَكَرَ ﴿٣٥﴾ ﴾ وبين الله سبحانه علة نجاتهم ، وهى أن الله أراد أن ينعم عليهم تفضلاً منه ورحمة، وهذا هو الجزاء الأوفى الذى منّ الله به على مَن آمن من قوم لوط.

﴿ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ ﴿٣٦﴾ ﴾ وعلى الرغم من أن لوطا أنذر قومه أن الله سيأخذهم بالعذاب الشديد إذا ساروا على طريقتهم الفجة إلا أنهم كذبوه، ولم يلتفتوا إلى إنذار الله لهم.

﴿ وَلَقَدْ رَاوَدُوهُ عَن ضَيْفِهِ فَطَمَسْنَا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٧﴾ ﴾ أى أرادوا من لوط أن يمكنهم من أضيافه، وهم الملائكة فى صورة الشبان ومعهم جبريل، قصدوا الفجور بهم، ظناً منهم أنهم بشر، ولكننا محونا رؤيتهم بمسح أبصارهم وتسويتها بسائر الوجه، فلم ير لها شق ، ويرى أن جبريل ضربهم بجناحه فتركهم لا يهتدون إلى الباب حتى أخرجهم لوط، وقلنا لهم على ألسنة الملائكة ذوقوا عذابى ونذر.

﴿ وَلَقَدْ صَبَّحَهُم بُكْرَةً عَذَابٌ مُّسْتَقِرٌّ ﴿٣٨﴾ ﴾ أى جاءهم وقت الصبح عذاب دائم متصل بعذاب الآخرة، حين قلب قراهم وجعل عاليها سافلها وأمطرهم بالحجارة، وكان ذلك غير العذاب الذى نزل بهم من طمس العيون ، وكل ذلك كان عذاب الدنيا وأنه متصل بعذاب الآخرة .

﴿ فَذُوقُوا عَذَابِي وَنُذُرِ ﴿٣٩﴾ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ حكاية لما أصابهم من العذاب ، وتنبيها ويقظة لئلا يغلبهم السهو والغفلة، فيستمروا فى أفعالهم القبيحة، فإن فى التكرار تأكيداً للمعنى فى الأسماع، وتثبيتاً له فى القلوب، وكلما زاد التكرير كان أثبت للذكر بعد النسيان ، وأرسخ للفهم بعد التوهان.

ويذكر القرآن حادثة أخرى وأخيرة ليرتدع كفار مكة إذا اعتبروا ، ولكنهم لم يعتبروا ، وهى حادثة فرعون.

﴿ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ ﴿٤١﴾ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ ﴿٤٢﴾ ﴾

فقد أرسل الله موسى وهارون إلى فرعون بالإنذارات حتى يتركوا ما هم فيه من الشرك، ويلجوا باب الإيمان ، ولكنهم كذبوا بالرسل وأهملوا الإنذارات، فأخذهم الله أخذ عزيز لا يغلب، مقتدر لا يعجزه شيء، فأطبق عليهم البحر وأغرقهم فى قاعه.

﴿ وَلَقَدْ جَاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ (٤١) كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا كُلِّهَا فَأَخَذْنَاهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُّقْتَدِرٍ (٤٢) ﴾

ولقد جاء فرعون وقومه الإنذار تلو الإنذار من جهة موسى وهارون عليهما السلام، واكتفى بذكر القوم دون ذكر فرعون ، للعلم بأنه المقصود الأهم بالإنذار وقومه تبع له، فماذا فعلوا ؟ قيل : (كذبوا بآياتنا كلها) جاءت هذه الجملة بدون عاطف، لأنها جواب عن سؤال مقدر فى الكلام السابق، كذبوا بالآيات التسع كلها وهى : اليد ، والعصا، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع، والدم ، وحل عقدة من لسانه وانفلاق البحر، فأخذهم الله بتكذيبهم ولم يمنعه مانع من إغراقهم فى الماء، الذى هو سبب الحياة لغيرهم .

وبعد أن يذكر القرآن هذه الأحداث، حادثا تلو الآخر، مبيناً المآل الذى وصلوا إليه ، والهلاك الذى وقعوا فيه بسبب عصيانهم وضلالهم وكفرهم، إذ بالقرآن يعاود بالخطاب أهل مكة :

﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَائِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ (٤٣) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ (٤٤) سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ (٤٦) إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٤٧) يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (٤٨) إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩) وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (٥٠) وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٥١) وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (٥٢) وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ (٥٣) إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ (٥٥) ﴾

فهل أنتم يا أهل مكة خير من قوم نوح ، وهود ، وصالح ، ولوط ، وفرعون فأنتم مثل هؤلاء؛ بل شر منهم ، فمصيركم من الهلاك مثل مصيرهم، أم كانت لكم براءة وأمن العذاب فى الكتب المنزلة السالفة، أم أنكم ممتنعون لا تصلكم يد القدرة فلا ينالكم العذاب ؟ كلا؛ بل كل ذلك باطل لا حق فيه، بل أنكم ستعذبون مرتين، مرة فى الدنيا حين تهزمون وتولون الأدبار يوم بدر، وحين تسحبون فى النار

على وجوهكم وتذوقوا لفح جهنم وحرارتها فى الآخرة، فكل شىء بموعد، وقد خلقنا كل شىء بتقدير سابق، ولا ينتظر تحقيقه سوى كلمة واحدة، لن تستغرق فى زمنها إلا كلمح البصر، فكل شىء فعلوه صغيراً أو كبيراً مسطور فى اللوح المحفوظ، ولا راد له ، ثم يجزل النعيم للمتقين الذين لم يجرفهم تيار الكفر، فهم فى جنات وفى سعة وضياء ، فى مكان مرضى عنه، عند مالك الملك القادر على كل شىء.

﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُوْلَئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ (٤٣) ﴾ يا معشر العرب أكفاركم أشد وأقوى عند الله من كفار قوم نوح وهود وصالح ولوط وآل فرعون ، الذين أصابهم ما أصابهم من عذاب الإغراق أو الرجفة أو الصيحة أو الإهلاك فهل تطمعون ألا يصيبكم مثل ما أصابهم وأنتم شر مكاناً وأسوأ حالاً منهم، أراد الله أن يقررهم على أنهم أشرار وأن العذاب فى انتظارهم، ولذلك فالاستفهام لم يستعمل فى معناه الحقيقي، والله ينكر عليهم أن يكون قد نزل عليهم فى كتبهم السماوية شىء فيه أن من كفر منكم فهو فى أمن من عذاب الله، وبراءة من عقابه.

﴿ أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُّنتَصِرٌ (٤٤) ﴾ هنا التفات من الخطاب إلى الغيبة ، إعراضاً عنهم وإسقاطهم عن رتبة الخطاب، وكأنه يحكى قبائحهم لغيرهم.

فهم يقولون واثقين بقوة شكيمتهم وحدّة شوكتهم : نحن أولو حزم وبأس شديد، أمرنا واحد غير مفرق، لا نرام ولا نضام، يقولون ذلك جهلا منهم بحقيقة أمرهم، فيظنون أنهم منتصرون على المسلمين من أعدائهم، وعلى الرسول الذى يدعوهم إلى نبذ أديانهم وعبادة أصنامهم ، ولكن الله جزم بالأمر وقرر هزيمتهم فقال :

﴿ سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (٤٥) ﴾ أى سيهزم جمع قريش لا محالة، والسين تفيد التأكيد، ويولون الأدبار، وسيفرون من المعركة وملاقاة المسلمين فى الحرب، وينصر الله رسوله والمؤمنين وقد كان ذلك فى موقعة بدر الكبرى. ووحد « الدبر » ولم يجمع فلم يقل « الأدبار » لأن المراد الجنس فيشمل الجميع، « وولى دبره » كناية عن الفرار ؛ لأنه يلزم الفرار أن يدير الرجل ظهره للقتال حتى ينجو بنفسه .

﴿ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهَىٰ وَأَمَرُّ (٤٦) ﴾ وبعد أن فرغ من ذكر عقوبتهم فى الدنيا وهو عذاب الهزيمة على خلاف ما يتوقعون ، شرع فى ذكر العذاب

الأخروى ، فموعدهم الساعة وهى يوم القيامة، حتى تتم عقوبتهم ، وكرر ذكر الساعة ، دون أن يكتفى بذكر ضميرها فقال : بل الساعة موعدهم والساعة، بدلاً من القول « وهى » أدهى وأمّر ، مهّولا من شأنها، وليزرع الخوف فى نفوسهم ، فهى أعظم داهية، وأشد فظاعة وأقوى مرارة، وخلاصة الأمر:

أن موقف القيامة أهول من موقف بدر، وعذابها أشد؛ لأن عذاب الدنيا مثل الأسر والقتل والهزيمة، وهذا جزء صغير من عذاب الآخرة. ونار الهزيمة لا تعدل جزءا من سبعين جزءا من نار جهنم.

﴿ إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلَالٍ وَسُعُرٍ (٤٧) ﴾ ذكر المشركين من الأولين والآخرين بأوصافهم التى تدل عليهم ، وهى الإجرام فى حق الرسل والرسالات، ولذلك فهم فى هلاك ونيران مستعرة ، و «فى» تفيد الظرفية أى تدخل الأماكن والأوعية كما تقول : « النقود فى الحقيبة » ولكن الضلال ليس مكاناً حتى تدخل عليه « فى » ولكنها دخلت عليه مجازا.

﴿ يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (٤٨) ﴾ وهم فى هذه الحال من الهوان والنيران المستعرة يجرّون جّرا على وجوههم، فى سقر، وهى جهنم، والمس : إحساس بظاهر البشرة، فمس النار لهم فيه ألم شديد يلحق أجسادهم، والمس سبب الألم، وعبر به مجازاً وقال « على وجوههم » فكأن النار تحيط بهم من كل جانب وتركب وجوههم ، فوجوههم مركوبة لا راكبة، ومستعل عليها ، وليست مستعلية على غيرها، فهو تعبير قرآنى دقيق يفيد شدة عذابهم. وانظر إلى قولهم ركبت على الفرس، فالفرس مركوب وليس راكبا، وهكذا كانت وجوههم مركوبة تزحف عليها النار من كل الجهات.

ثم قال « مس سقر » فلفظة « مس » فيها العذاب كله الذى لا يتحمله العاصى، فكيف حالهم مع سقر نفسها ، وذوق الطعام ومس الشراب فيه إشارة وخفة حتى يعلم ما بعده من الطعام نفسه والشراب ذاته، فكان فى الذوق و المس دلالة عليهما من حلاوة أو مرارة. فلهيب جهنم يكفى فى إدراكه، الإحساس بوهجه وإن كان من بعيد .

﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ (٤٩) ﴾ أى كل شىء من الأشياء خلقناه مقدرا مكتوباً فى اللوح قبل وقوعه لا يغير ولا يبدل، سوّينا صورته وشكله، وحددنا صفاته الظاهرة والباطنة على مقدار مخصوص اقتضته الحكمة الإلهية.

﴿ وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (٥٠) ﴾ وما أمرنا لشىء نريد تكوينه إلا كلمة واحدة لا تثنى ولا تتردد سريعة التكوين فالله جل وعلا يوجد الأشياء بلا تعب أو معاناة ، وهذه الكلمة الواحدة سريعة شديدة السرعة كلمح البصر فى اليسر والسرعة، مما يدل على أن قضاء الله نافذ، وهو فى نفاذه أسرع من لمح البصر.

وفى الآية تخصيص وتشبيه ، تخصيص حين قصر أمرنا على واحدة، لا أكثر، وتشبيه حين جعلها سريعة كلمح البصر.

﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا أَشْيَاعَكُمْ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ (٥١) ﴾ أشياعكم : جمع شيعة ، وهو من يلوذ به الإنسان ويتقوى بمؤازرته، وينشر عنه رأيه، أى أهلكنا أشباهكم فى الكفر من الأمم السابقة .

وفى القاموس : شيعة الرجل : اتباعه وأنصاره.

(فهل من مدكر) متعظ يتعظ بذلك فيخاف ، ويختار لنفسه الأليق والأحرى.

﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (٥٢) ﴾ كل شىء ارتكبوه من الكفر والمعاصى مدون بالتفصيل فى ديوان الحفظة. والزبر: جمع زبور بمعنى الكتاب.

يقول الغزالى رحمه الله ، كل شىء فعلته الأمم السابقة ، مذكور فى كتب أنبيائهم المنزلة عليهم ، كأفعال كفار زماننا مدونة فى كتابنا .

وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ (٥٣) وكل عمل سواء أكان صغيراً أم كبيراً مسطور فى اللوح المحفوظ بتفاصيله، يقال : استطره : كتبه.

والرسول «صلى الله عليه وسلم» ضرب مثلاً بصغائر الذنوب فقال : إنما محقرات الذنوب كمثل قوم نزلوا بفلاة من الأرض وحضر جميع القوم، فانطلق كل واحد منهم يحطب، فجعل الرجل يجىء بالعود، والآخر بالعود حتى جمعوا سوادا-

وأججوا نارا، فشووا خبزهم، وإن الذنب الصغير يجتمع على صاحبه فيهلكه، إلا أن يغفر الله ، اتقوا محقرات الذنوب فإن لها من الله طالبا».

ولقد أحسن من قال :

لا تحقرن صغيرة   إن الجبال من الحصى

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (٥٤)﴾ إن الذين اتقوا الكفر والمعاصى فى جنات وبساتين عظيمة الشأن تجل عن الوصف، أعدت لهم، يعيشون بين أنهار الماء والخمر والعسل واللبن.

(ونهر) اسم جنس يشمل المفرد و الجمع. وعبر بالمفرد مراعاة للفواصل، والجرس الموسيقى بين الكلمات وأواخر الآيات.

﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ (٥٥)﴾ أى فى مكان مرضي، ومجلس آمن، سالم من اللغو والتأثيم، بخلاف مجالس الدنيا، التى لا تسلم من ذلك. وهم بذلك فى منزلة قريبة ، من الله (عند مليك) وليست العندية المكانية، إذ هى مستحيلة على الله سبحانه ، والمليك أبلغ من المالك، لأنها صيغة مبالغة، وهى أشد فى الدلالة على الملك من « المالك » ونكر «مليك» لما فيها من التعظيم .

فهم مقربون عند عزيز واسع الملك، فلا شيء إلا وهو تحت إرادته ، فأى منزلة أكرم من تلك المنزلة، وأدعى للغبطة وأجمع للسعادة بأسرها.

(مقتدر) لا يعجزه شيء، فقدرته تعلو على كل قدرة، وإرادته تسمو على كل إرادة .

وقد مدح الله المكان بالصدق فقال (فى مقعد صدق) فلا يقعد فيه إلا أهل الصدق، وهو المقام الذى يصدق الله فيه وعده لأوليائه، بأن يبيح لهم النظر إلى وجهه الكريم.

و المراد المقصود من الآية : هم الذين لا تحجبهم الجنة ولا النعيم ولا شيء عنه تعالى .

قال أحد العلماء : يا أخى هؤلاء غرباء الله فى الدنيا والآخرة، أدخلهم فى أغرب المنازل، وهو مقام المجالسة معه بحيث لا يطلع عليه إلا أهل الصدق، وهم فقراء المعرفة الذين قال عليه السلام فيهم : « الفقراء جلساء الله ».

فلابد - إذن - من الصدق، وخدمة الصادقين حتى يصل الإنسان إلى هذا المطلب الجميل.

ولابد من الصدق فى القول، لأنه يصون اللسان عن الكذب الذى هو أقبح الذنوب، قال عليه السلام : التجار هم الكفار، فقيل : أليس الله قد أحل البيع ؟ قال نعم ، ولكنهم يحلفون فيأثمون ، ويتحدثون فيكذبون، كما قال عليه السلام: الكذب ينقص الرزق.

نسأل الله العافية والصدق، وأن يجنبنا ضعف النفس والكذب، إنه سميع عليم، وبالإجابة جدير.

* * *

سورة الرحمن

بسم الله الرحمن الرحيم

السورة مدنية بالاتفاق ، آياتها ثمان وسبعون ، وكلماتها ثلاثمائة وإحدى وخمسون، نزلت بعد سورة الرعد.

ومعظم مقاصد السورة تتمثل فى :

المنّة على الخلق بتعليم القرآن وتلقين البيان ، وأمر الخلائق بالعدل فى الميزان ، والمنّة عليهم بالعصف والريحان ، وبيان عجائب القدرة فى طينة الإنسان وبدائع البحر وعجائبه من استخراج اللؤلؤ والمرجان، وإجراء الفلك على وجه الماء أبدع جريان ، وفناء الخلق وبقاء الرحمن وقضاء حاجات المحتاجين وألاّ نجاة للعبد من الله إلا بحجة وبرهان، وقهره الخلائق فى القيامة بلهب النار والدخان، وسؤال أهل الطاعة والعصيان، وطواف الكفار فى الجحيم، ودلال المؤمنين فى نعيم الجنان، ومكافأة أهل الإحسان بالإحسان، ونشاط المؤمنين بأزواجهم من الحور الحسان، وتقلبهم فى رياض الرضوان، وخطاب جلال الحق على لسان أهل التوحيد والإيمان بقوله (تبارك اسم ربك ذو الجلال والإكرام).

وكررت فى السورة هذه الآية (فبأى آلاء ربكما تكذبان) إحدى وثلاثين مرة.

ثمانية منها ذكرت عقب آيات فيها تعداد عجائب خلق الله وبدائع صنعه، ومبدأ الخلق ومعادهم.

وسبعة منها عقب آيات فيها ذكر النار وشدائدها على عدد أبواب جهنم، وحسن ذكر الآلاء عقبها ، لأنها حلّت بالأعداء الكافرين وذلك يعّد من أكثر النعماء، أو لأن فى دفع هذه الشدائد نعما توازى النعم المذكورة .

وبعد هذه السبعة ذكرت ثمانية فى وصف الجنان ، وأهلها على عدد أبواب الجنة.

وثمانية أخرى بعدها للجنتين اللتين دونهما.

فمن اعتقد الثمانية الأولى، وعمل بموجبها استحق ثوابها جميعاً من الله ووفّاه تجنب السبعة السابقة التى ذكر فيها النار وشدائدها.

ومن فضل السورة حديث أبىّ « لكل شىء عروس ، وعروس القرآن سورة الرحمن، وقال من قرأ سورة الرحمن رحم الله ضعفه، وأدى ما أنعم الله عليه... وله بكل آية قرأها مثل ثواب امرأة تموت فى نفاسها».

﴿ الرَّحْمَنُ (١) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (٢) خَلَقَ الإِنسَانَ (٣) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ (٤) ﴾

والرحمن : أى الذى له الرحمة الكاملة، فهو رحمن الدنيا ، ورحيم الآخرة وذلك لأنه عمم الرزق فى الدنيا، وخص المؤمنين بالعفو فى الآخرة.

يقول الإمام الغزالى رحمه الله :

الرحمن : هو العطوف على العباد بالإيجاد أولاً ، وبالهداية إلى الإيمان وأسباب السعادة ثانياً، والإسعاد بالآخرة ثالثاً ، والإنعام بالنظر إلى وجه الكريم رابعاً».

ولما كانت هذه السورة شاملة لتعداد النعم الدنيوية والأخروية ، والجسمانية والروحانية ، بدأها مجملة باسم الرحمن ، ليسند إليه النعم المختلفة، ولما كان القرآن أعظم النعم شأنا، لأنه اشتمل على جميع الحقائق المذكورة فى الكتب السماوية، وكان تعليمه من آثار الرحمة الواسعة بدأ بذكر القرآن فقال .

(علم القرآن) أى علم رسوله محمداً القرآن بواسطة جبريل الأمين ، وعلم الأمة القرآن بواسطة محمد.

أى : أن الذى علم آدم الأسماء ، وفضله بها على الملائكة هو الذى علمكم القرآن وفضلكم على سائر الأمم .

فالكلام الإلهّى قرآن باعتبار البداية ، وهو بهذا المعنى لا يتوقف على خلق الإنسان وظهوره فى هذا العالم، وإنما يتوقف على خلق الإنسان، تعليم البيان ، ولذا قدم تعليم القرآن على خلق الإنسان ، كما قدم خلقه على تعليم البيان .

(خلق الإنسان) أى إنشاؤه على ما هو عليه من القوى الظاهرة والباطنة،

(علمه البيان) أى التعبير عما فى الضمير بعبارة واضحة ، أو لمحة موجبة وسمى الكلام بياناً ، لكشفه عن المعنى المقصود وإظهاره ، ولما بينهما من ملازمة.

والمراد بالإنسان : جنس الإنسان ليشمل جميع أصنافه وأفراده.

﴿ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾ ﴾ الحسبان بالضم كغفران بمعنى الحساب ، أى أن الشمس والقمر يجريان بحساب وقدر فى بروجهما ومنازلهما فيحدث منهما اختلاف الفصول والأوقات، وتعلم السنون ، فالسنة القمرية ٣٥٤ يوماً، والسنة الشمسية ٣٦٥ر٢٥ يوم، وبين الشمس والقمر مراعاة للنظير حيث إنهما من واد واحد.

﴿ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ﴿٦﴾ ﴾ النجم : النبات الذى ينجم أى يطلع من الأرض ولا ساق له ، مثل البطاطا والقرع، والشجر : الذى له ساق.

فهذا وذاك كلاهما ينقاد لله تعالى انقياد الساجد من المكلفين طوعاً، أو يسجد ظلهما كما فى قوله تعالى : ﴿يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل سجّدا لله ﴾ النحل ٤٨.

وبين النجم - النبات - والشجر مراعاة نظير ؛ لأنهما من شىء واحد . وقد ذكر الله سبحانه فى مقابلة النعمتين السماويتين اللتين هما الشمس والقمر نعمتين أرضيتين هما النجم والشجر، فهما أصل الرزق من الحبوب والثمار والحشيش للدواب والإنسان.

وقد جاء القرآن بالجمل الأولى من سورة الرحمن « الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان ؛ بدون عاطف لورودها فى تعديد نعم الله الموجبة لشكره على الخلق والتعليم كما تقول بدون عطف : محمد أغناك بعد فقر، أعزك بعد ذل، كثّرك بعد قلة ، فعل بك مالم يفعله أحد بأحد.

وأما عطف جملة (والنجم والشجر يسجدان) على ما قبلها (الشمس والقمر بحسبان) لما بين الجملتين من التقابل فالشمس والنجم علويان والنجم والشجر سفليان، وحال العلو كحال السفل من باب الانقياد لأمر الله تعالى.

وأورد هاتين الجملتين فى صورة الجملة الإسمية وأورد الجمل السابقة

عليهما فى صورة الجملة الفعلية؛ لأن الشمس والقمر ، والنجم والشجر، هذه الأربعة مغايرة لجنس الإنسان فى ذاته وصفاته، فعبر النظم من الفعلية إلى الإسمية تحقيقا للتغاير فيهما صورة ومعنى .

﴿ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ (٧) ﴾ أى خلق السماء مرفوعة من حيث المكان كما نشاهدها ، ومرفوعة من حيث المكانة والرتبة حيث جعلها منشأ أحكامه ومحل ملائكته ، وتنزيل أوامره ، (ووضع الميزان) بأن أمر بالعدل ووفّى لكل ذى حق حقه، حتى انتظم به أمر العالم واستقام ، أى أنه خلق كل ما توزن به الأشياء ويعرف مقاديرها ، وطابق بين رفع ووضع من حيث التضاد، وقدم المفعول على الفاعل فى « السماء » دون « الميزان » لشدة الاهتمام بأمر السماء ولشأنها العجيب دون الميزان .

﴿ أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ (٨) ﴾ أى وضعه لئلا تطغوا فيه ولا تتجاوزوا الأنصاف.

﴿ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ (٩) ﴾ واجعلوا وزنكم مستقيما بالعدل، وفى ذلك إشارة إلى مراعاة العدل فى جميع ما يتحّراه الإنسان من الأفعال والأقوال.

(ولا تُخسروا الميزان) أى لا تنقصوه ؛ لأن المقصود من الميزان لا تنقصوا الموزون فى الميزان ، لا الميزان نفسه فعبر بالمحل وأراد ما يحل فيه أمر «بالتسوية» وأقيموا الوزن بالقسط « ونهى عن الطغيان »، «أن لا تطغوا فى الميزان » ثم نهى عن الخسران الذى هو تطفيف ونقصان .

« ولا تخسروا الميزان » فجمع بين ثلاثة أشياء لا يخرج الوزن عنها وهى عدم النقصان ، وعدم الطغيان ، وتحرّى القول والاستقامة وعطف بين الجمل الثلاث ، لاتفاقها فى معنى واحد.

وكرر لفظ الميزان ثلاث مرات ، تشديدا للتوصية به، وتأكيداً للأمر باستعماله ، والحث عليه.

﴿ وَالأَرْضَ وَضَعَهَا لِلأَنَامِ (١٠) ﴾ أى جعلها منخفضة مبسوطة لمنافع الأنام ، لجميع خلقه من الإنس والجن، وكل ما على سطحها ، فهى كالمهاد والفراش لهم

لجميع خلقه من الإنس والجن، وكل ما على سطحها ، فهى كالمهاد والفراش لهم يتقلبون عليها ، ويتصرفون فوقها. والأنام تطلق على كل ما يتأتى منه النوم والرقاد كناية عن السكون والاطمئنان عليها.

﴿ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ (١١) ﴾ وعلى هذه الأرض المخلوقة لنفع الخلق ضروب كثيرة مما يتفكه به ويتلذذ، فلفظة الفاكهة تشعر باختلاف الأنواع، والنخل وماله من أوعية التمر، وهى غلافها قبل أن تتفق وتظهر منه.

وأكمام جمع كمّ بالكسر ، وهو الغلاف الذى يكون فيه الثمر أول ظهوره .

﴿ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ (١٢) ﴾ « والحب » هو كل ما يتغذى به ويقتات من حنطة أو شعير أو غيرهما « ذو العصف » العصف هو ورق النبات والزرع كالتين ، «والريحان » ماله رائحة.

﴿ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٣) ﴾ الخطاب للثقلين : الإنس والجن ، والآلاء : النعم الظاهرة : والباطنة التى تصل إليهما.

﴿ خَلَقَ الْإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ (١٤) ﴾ الصلصال : الطين اليابس غير المطبوخ الذى له صوت يسمع من يبسه.

ومن هذا الصوت جاءت لفظة الصلصلة.

والفخار : الطين المطبوخ بالنار ، وشبه بالفخار ؛ لصوته إذا نقر ليبسه، وكأنه صور بصوره من يكثر التفاخر، أو لأنه أجوف، فشبه بالمتكبر المتفاخر وهو أجوف. فكلمة الفخّار دون غيرها لها دلالة خاصة فعبر بها.

ولا تنافى بين الصفات التى خلق منها الإنسان فى هذه الآية وفى غيرها من الآيات الأخرى. فقد خلق الله آدم عليه السلام من تراب، ثم جعله طينا، ثم حمأ مسنوناً ، ثم صلصالاً، ثم صب عليه ماء الأحزان، فلا ترى ابن آدم إلا يكابد حزناً، فلا تنافى بين آية ناطقة بأحدها وأخرى ناطقة بغيرها .

﴿ وَخَلَقَ الْجَانَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ (١٥) ﴾ الجان : الجن أو أبا الجن ، أو إبليس ، خلقه من مارج ، أى : من لهب صاف من الدخان، أو من لهب مختلط من اللهب

الأحمر والأصفر والأخضر الذى يعلو النار إذا اتقدت، من مرج القوم إذا اختلطوا واضطربوا.

من نار بيان توضيح لمارج .

وكما خلق الجان من مارج من نار.

خلق الملائكة من نورها

والشياطين من دخانها

﴿ فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٦) ﴾ فبأى نعم الله تكذبان يا معشر الإنس والجن مما أفاض الله عليكما من سوابغ نعمه ، حتى صيركما خلاصة الكائنات .

أوفبأى آلاء ربكما تكذبان أيتها الروح اللطيفة، والنفس الخبيثة؛ لأن كل واحد منكما قد ذاق ما جبل عليه من اللطف والقهر، والطيب والخبيث.

﴿ رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (١٧) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (١٨) ﴾ أى رب مشرقى الصيف والشتاء ومغربيهما ، بأى نعم الله تكذبان ، وفى هذه النعم من فوائد لاتحصى من اعتدال هواء، واختلاف فصول ، وحدوث ما يناسب كل فصل فى وقته، وغير ذلك.

﴿ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ (١٩) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ (٢٠) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢١) ﴾

تقول مرجت الدابة ، أى أرسلتها وخليتها للرعى ، والمراد أرسل البحر المالح والعذب يتجاوران ويمس سطح أحدهما الآخر ، فلا فصل فى مرأى العين، وذلك كدجلة ، يجرى ماء النهر فيدخل البحر ويشقه ويسير داخله دون أن يتغير طعمهما، وبين الاثنين حائل غير مرئى، أو حاجز من قدرة الله ، أو حاجز من الأرض، وسمى القبر برزخا؛ لأنه يحول بين الدنيا والآخرة .

فلا يبغى أحدهما على الآخر بالممازجة، وإبطال خاصيته ، بل يبقيان على حالهما زماناً يسيرا ، مع أن من شأنهما الاختلاط والممازجة، وانفعال كل واحد منهما بالآخر على الفور ، فكيف نكذب ذلك، وليس من البحرين شىء يقبل التكذيب، وفى ذلك من العبرة مالا يخفى .

﴿ يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ (٢٢) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٣) ﴾ اللؤلؤ : الدر ،

والمرجان ينبت فى البحر كالشجرة ، ومنه أبيض وأحمر وأسود ، وهو يقوى البصر إذا اكتحل به ، ويذهب رطوبة العين .

وقيل : اللؤلؤ : كبار الدر ، والمرجان : صغاره .

ويقال : إن اللؤلؤ يخرج من بحر فارس ، و المرجان من بحر الروم ، لا من كليهما .

ونسب الإخراج إلى كلا البحرين ، وإنما يخرجان من المالح دون العذب، أو أنهما لا يخرجان من جميع البحر ؛ بل من بعضه دون بعض ، فهذا تعبير بالمجاز حيث ذكر الكل وأراد البعض.

وقال الجمهور : يخرج من المالح الأجاج من المواضع التى تقع فيها الأنهار والمياة العذبة ، فناسب ذلك إسناد الماء إليهما، وهذا مشهور عند الغواصين.

أليس استخراج اللؤلؤ والمرجان من البحر مما يدعو إلى التصديق لا إلى التكذيب ؟ فكيف يمكنكم يا معشر الإنس والجن أن تكذبا هذه النعم الظاهرة الملموسة التى لا يستطيع أن ينكرها أحد .

﴿ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالأَعْلامِ (٢٤) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٢٥) ﴾
الجوار: أصلهما الجوارى بالياء بمعنى السفن جمع جارية ، أى السفن الجارية، وسميت جارية ؛ لأن شأنها الجرى فى البحر وإن كانت واقفة فى المرسى أو عند الشاطئ، كما تسمى المملوكة جارية ؛ لأن شأنها الجرى والسعى فى حوائج سيدها .

وخص الجوارى بالذكر دون غيرها من المخلوقات؛ لأن جريانها فى البحر لاصنع للبشر فيه، وإذا خافوا الغرق دعوا الله خاصة .

« المنشآت » المخلوقات فى البحر كالجبال الشاهقة عظما وارتفاعاً، والسفن فى البحر كالجبال فى البر ، والإبل فى البر كالسفن فى البحر، فهل تكذبون هذه النعم التى اشتملت عليها تلك السفن من خلق موادها ، والإرشاد إلى أخذها، وكيفية تركيبها، وجريانها فى البحر، وقطعها للمسافات الكبيرة فى الأوقات القليلة، وغير ذلك مما لا يقدر على خلقه وجمعه وترتيبه سوى الله تعالى .

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ (٢٧) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا

تُكَذِّبَانِ (٢٨) ﴾ أى كل من على الأرض من الحيوانات والإنس والجن هالك لا محالة ، واستعمل (مَن) هنا للعاقل وغير العاقل ، للتغليب؛ لأن أصل وضعها للعاقل دون غيره.

(ويبقى وجه ربك) أى ذاته ، والوجه هو العضو المعروف المشتمل على العينين والأنف والخد، أستعير للذات؛ لأنه أشرف الأعضاء، ومجمع المشاعر، وموضع السجود، ومظهر آثار الخشوع ، ويجوز أن يكون الوجه كناية عن الجهة بناء على أن ما اكتسبوه من الأعمال هالك، إلا ما توجهوا به إلى جهة الله، وعملوه ابتغاء مرضاته .

(ذو الجلال والإكرام) أى ذو العظمة فى ذاته ، وعن الرسول عليه السلام أنه مر برجل وهو يصلى ويقول : يا ذا الجلال والإكرام ، فقال أستجيب لك الدعاء، فالدعاء بهاتين الكلمتين مرجو الإجابة ، وذكر فناء الخلق وبقائه تعالى يشعر بأن الله تعالى يفيض عليهم بعد فنائهم أيضاً من كرمه ولطفه، أليس ذلك من جليل نعمه وعظم آلائه التى لا تستحق الجحود أو التكذيب.

﴿ يَسْأَلُهُ مَن فِى السَّمَـوَاتِ وَالأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ (٢٩) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٠) ﴾ يسأله جميع من فى السماوات والأرض قاطبة ما يحتاجون إليه من سائر أحوالهم سؤالا مستمراً بلسان المقال أو بلسان الحال، والله فى كل وقت من الأوقات هو فى شأن من الشئون التى من جملتها إعطاء ما سألوا، ولا يزال ينشئ أشخاصاً ويفنى آخرين، ويذهب بأحوال من الغنى والفقر، والعزة والذلة، والصحة والمرض حسبما تقتضيه مشيئته ، فهل تكذبون نعمه وإحسانه.

﴿ سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلانِ (٣١) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٢) ﴾ وعندما ينتهى الله من شئون الخلائق التى أشار إليها بقوله « كل يوم هو فى شأن » سيتجرد لحسابكم وجزائكم ؛ لأن الفراغ يلزمه التجرد ، ليس الفراغ من الشغل؛ لأن الله لا يشغله شأن عن شأن . وفى الآية معنى التهديد، كما يقول المهدد لصاحبه سأفرغ لك ، أى سأتجرد للإيقاع بك من كل ما يشغلنى ، أى أتفرغ على الانتقام منك، والخطاب هنا للمجرمين . والمراد بالثقلين : الإنس والجن، وسميا بالثقلين؛ لأنهما يثقلان

بالذنوب ، أو لما فيهما من الثقل ، والإنس أثقل من الجن .

وفى الآية تحذير مما سيلقونه من سوء الحساب يوم القيامة ، فلِمَ تكذبون بأقوالكما وأفعالكما...؟.

﴿ يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لا تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ (٣٣) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٤) ﴾ الجن والإنس هما الثقلان ، ولكنه عبر بهما زيادة فى التقرير والتأكيد، ولأن الجن مشهورون بالقدرة على الأفعال الشاقة، خاطبهم بما ينبئ عن عجزهم، فإن قدرتهم لاتفى بما كلفوا به.

والمعشر : الجماعة العظيمة، وسميت بذلك لبلوغ العشرة غاية الكثرة؛ لأن العشر هو العدد الكامل الذى لا عدد بعده إلا بتركيبه.

وقدم الجن على الإنس فى هذه الآية ؛ لتقدم خلقه على الإنس، وقدم الإنس على الجن فى آيات كثيرة كقوله تعالى : ﴿ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ ﴾ الإسراء ٨٨، لأن التقديم يقتضى الأفضلية.

(إن استطعتم) ولم يقل إن استطعتما ، لأن كل واحد منهما فريق فيشمل الجماعة، فجمع الضمير هنا نظراً إلى معنى الثقلين ، وثناه فى قوله (يرسل عليكما شواظ من نار ونحاس) الآية ٣٥ نظراً إلى اللفظ.

(أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض) النفاذ : خلوص شىء من شىء، أى إذا استطعتم أن تخرجوا من جوانب السماوات والأرض هاربين من الله فارّين من قضائه ، فاخرجوا منها وخلصوا أنفسكم من عقابى، والأمر هنا فى (فانفذوا) للتعجيز، أى لا تقدرون على النفوذ . (إلا بسلطان) أى بقوة وقهر، وأنتم فى ذلك غاية فى البعد ، والله ينبه الثقلين من الإنس و الجن على أنه عفو وغفور مع كمال قدرته على العقوبة البالغة .

﴿ يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِّن نَّارٍ وَنُحَاسٌ فَلا تَنتَصِرَانِ (٣٥) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٣٦) ﴾ هذه جملة استئنافية ، جواب عن سؤال ما الداعى إلى الهرب والفرار؟ يرسل عليكما ... ولذلك جاءت الآية دون عطف.

والشواظ : لهب خالص لا دخان فيه.

(من نار) نكر « نار » لتفخيم النار وتعظيمها.

(ونحاس) دخان أصفر مذاب يصب على رءوسهم ، وشبهه بالنحاس فى صفرة اللون.

(فلا تنتصران) أى لا تمنعان من العذاب .

فالله يحذرهم من عاقبة الكفر والمعاصي، فإن فى التحذير لطفاً ونعمة.

﴿ فَإِذَا انشَقَّتِ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ (٣٧) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٣٨) ﴾
(انشقت السماء) انصدعت يوم القيامة، وانفك بعضها من بعض لقيام الساعة.

أو انفرجت فصارت أبواباً تنزل منها الملائكة ، كقوله تعالى : ﴿ ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا ﴾ الفرقان ٢٥.

(فكانت وردة) أى كوردة ، والغالب على الوردة الحمرة.

(كالدهان) أى كدهن الزيت ، أى تذوب وتجرى كذوبان الدهن وجريه، فتصير حمراء من حرارة جهنم ، وتصير مثل الدهن فى رقته وذوبانه . فهل يمكن تكذيب ذلك مع عظم شأن السماء . بالغ فى التشبيه أولاً فأغفل الأداة « فكانت وردة» أى السماء مطابقة للوردة ، وحين أراد المشابهة لا المطابقة ذكر الأداة «كالدهان».

﴿ فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنْبِهِ إِنسٌ وَلا جَانٌّ (٣٩) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٠) ﴾ أى يوم إذا انشقت السماء، يخرجون من القبور ، ويحشرون إلى الموقف فوجا بعد فوج على اختلاف مراتبهم، وهكذا يعرفون بسيماهم فلا يحتاج إلى معرفة المذنب من المطيع حتى يسأل عن ذنبه، والله لا يسألهم هل عملتم كذا وكذا؛ فإنه أعلم بذلك، ولكن يسألهم لِمَ عملتم كذا وكذا سؤال تقريع وتوبيخ، لا سؤال شفاء ورحمة.

والضمير فى « ذنبه » يعود للإنس ؛ لتقدمه فى الرتبة ، ولإفراده؛ لأن المراد أى فرد من أفراد الإنس، أى لا يسأل عن ذنبه إنسٌ ، ولا جنىٌّ.

أليس فى ذلك ما يزجركم عن الشر، والضر ، وفى ذلك نعمة ونفع لكم . فهل

تكذبان ما أنعم الله عليكم فى هذا اليوم أيها المطيعون . وما أقصاه منكم أيها العاصون ، فإن الانتقام من العصاة نعمة على الأحباب .

﴿ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ (٤١) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٢) ﴾ (يعرف المجرمون بسيماهم) جواب عن سؤال تقديره ، وكيف يعرف المجرمون حينئذ؟ يعرف المجرمون بسيماهم ، يعرفون بسواد الوجوه وزرقة العيون، وما يعلوهم من كآبة وحزن، كما يعرف الصالحون بأضداد هذه الصفات.

(فيؤخذ بالنواصى والأقدام) أى يؤخذ المجرم بناصيته مجازاً أى مقدم رأسه، والمراد يسحب من شعر رأسه ، فمقدم الرأس محل الشعر، أى تأخذ الملائكة بشعور رءوسهم وأقدامهم ، فيقذفون فى النار .

أو تسحبهم الملائكة إلى النار تارة تأخذ بالنواصى وتجرهم على وجوههم ، وتارة تجمع بين نواصيهم وأقدامهم فى سلسلة من وراء ظهورهم.

فهل تكذبون يا معشر الثقلين بهذه الزواجر والمواعظ؟.

﴿ هَذِهِ جَهَنَّمُ الَّتِي يُكَذِّبُ بِهَا الْمُجْرِمُونَ (٤٣) يَطُوفُونَ بَيْنَهَا وَبَيْنَ حَمِيمٍ آنٍ (٤٤) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٥) ﴾ أى يقال لهم هذه جهنم التى تكذبون وقوعها ، بطريق التوبيخ والتقريع، يدورون بين نيرانها يحرقون بها ، وبين ماء بالغ فى الحرارة أقصاها، يصب عليهم ويسقون منها فتقطع أمعاؤهم. أى يطوفون من النار إلى الماء المغلى ، ومن الماء المغلى إلى النار دهشا وعطشا أبدا لا يرتوون منه.

يقول بعض المفسرين : يسلط عليهم الجوع ، فيؤتى بهم الى الزقوم - وهو ثمر شديد المرارة كالح المنظر - فيأكلون منها، فتغصّ بها حلوقهم، فيستغيثون بالماء، فيؤتون بالحميم ، فإذا قربوه إلى وجوههم تناثر لحم وجوههم، ويشربون فتغلى أجوافهم، ويخرج جميع ما فيها ثم يلقى عليهم الجوع ، فمرة يذهب بهم إلى الزقوم ، ومرة إلى الحميم ، فهم يترددون، بين عذاب وعذاب آخر أشد منه هولا وتأثيرا أليس فى ذلك ابتلاء، وانزجار عن المعاصى والكفر، وفى ذلك من النعم مالايخفى؟.

﴿ وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ (٤٦) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٧) ﴾ بعد أن فرغ من تعداد ما وصل إليهم من النعم الدينية والدنيوية فى دنياهم، شرع فى تعداد النعم التى تفيض عليهم فى الآخرة.

(مقام ربه) موقفه الذى يقف فيه العباد للحساب، أى ولمن خاف ربه، فعبر بمقام ربه، أى مكانه، والله منزه عن المكان.

(جنتان) جنة للخائف من الإنس، وجنة للخائف من الجن، أى لكل خائفين منكما جنتان، أو لكل واحد جنة لعقيدته ، وأخرى لعمله، أو جنة لفعل الطاعات، وأخرى لترك المعاصى.

أو جنتان : جنة الفناء فى نعمة الله ، وجنة البقاء بالله، فهل تكذبان نعمة البقاء فى الله أو نعمة البقاء بالله ؟.

﴿ ذَوَاتَا أَفْنَانٍ (٤٨) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٤٩) ﴾ صفة لجنتين، وما بينهما اعتراض سيق للتنبيه على أن تكذيب هذه النعم موجب للإنكار والتوبيخ . و (ذواتا) تثنية ذات بمعنى صاحبة ، أى ذواتا أوراق وثمار وظلال ، وليس فى ذلك شىء يقبل التكذيب.

﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ (٥٠) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥١) ﴾ صفة أخرى لجنتين ، أى فى كل جنة منهما عين من ماء غير آسن تجرى كيف يشاء صاحبها فى الأعالى والأسافل.

وعن ابن عباس رضى الله عنه ، تجريان بالماء الزلال إحداهما : التسنيم والأخرى السلسبيل.

ويقال : فيهما عينان تجريان لمن كانت عيناه فى الدنيا تجريان من مخافة الله.

فهل تكذبان بجنة الفناء التى يجرى فيها ماء الحياة ، وهى البقاء بعد الفناء.

أو تكذبان بجنة البقاء التى يجرى فيها ماء العلم والحكمة !.

﴿ فِيهِمَا مِن كُلِّ فَاكِهَةٍ زَوْجَانِ (٥٢) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٣) ﴾ صفة أخرى لجنتين : أى فيهما صنفان : معهود، وغريب لم يره أحد ولم يسمع به فرد، أو حلو

وحامض، أو رطب ويابس، وكل ما فى الجنة خلق من حلاوة الطاعات فلا يوجد فيها المر المخلوق من مرارة السيئات، كزقوم جهنم، ولكون الجنة دار الجمال، فلا يوجد فيها اللون الأسود؛ لأنه من آثار الجلال، فهل تكذبان بهذه النعم الجليلة.

﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ فُرُشٍ بَطَائِنُهَا مِنْ إِسْتَبْرَقٍ وَجَنَى الْجَنَّتَيْنِ دَانٍ (٥٤) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٥) ﴾ أى جالسين جلسة الملوك ، جلوس راحة ودعة ، معتمدين على فرش جمع فراش، وهو ما يفرش ويبسط للجلوس والنوم داخلها غليظ الديباج - والاستبرق : الديباج الغليظ الثخين - وإذا كانت بطائنها بهذه الصفة، فما بالك بظاهرها؟

(وجنى الجنتين دان) أى ما يجتنى من أشجارها من الثمار قريب دان يناله القائم والقاعد والمضطجع بلا مشقة، فإن سهولة التناول تصوير لسهولة الأكل، فتلك الثمار تقع فى الفم بلا أخذ، فهل تكذبان بهذه النعم اللذيذة الوافرة. وتنكير «فرش» لإفادة التعظيم والتكثير .

﴿ فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ (٥٦) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ(٥٧) ﴾ وفى هذه الجنة نساء يقصرن أبصارهن على أزواجهن لا ينظرن إلى غيرهم، وتقول كل منهن لزوجها، وعزة ربى : ما أرى فى الجنة شيئا أحسن منك، فالحمد لله الذى جعلك زوجى، وجعلنى زوجك.

وقد يقال : قاصرات طرف غيرهن عليهن ، أى إذا رآهن أحد لم يتجاوز طرفة إلى غيرهن لكمال حسنهن.

(لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان) الطمث : الجماع المؤدى إلى خروج دم البكر، ثم أطلق على كل جماع طمث وإن لم يكن معه دم.

والمعنى : لم يمسهن أحد قبل أزواجهن، وفيه ترغيب لتحصيل الأبكار؛ إذ الرغبة فى الأبكار فوق الرغبة فى الثيبات . فهل تكذبان هذه النعم التى جعلت لإمتاع نفوسكم.

فيطمثهن: مجاز عن الجماع، وهو مسبب عنه . فالعلاقة السببية .

كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ (٥٨) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٥٩) الياقوت : حجر صلب

رزين صاف، منه الأحمر والأصفر والأبيض والأخضر والأزرق، وهو حجر لا تعمل فيه النار لقلة دهنيته، ولا يثقب لغلظة رطوبته ، ولا يعمل فيه المبرد لصلابته ، ويزداد حسنا على مر الأيام والليالى ، وهو عزيز قليل الوجود سيّما الأحمر، وبعده الأصفر، وهو أصبر على النار من سائر أصنافه.

وأجود أنواع اليواقيت وأغلاها قيمة : الياقوت الرمّانى وهو الذى يشبه النار فى لونه.

والمرجان ينبت فى البحر ، ومنه أبيض وأحمر وأسود، يقوى البصر، ويذهب رطوبة العين ، وقيل هو صغار اللؤلؤ.

أى نساء الجنة يشبهن الياقوت فى حمرة الوجنة، والمرجان فى بياض البشرة وصفائها ، فإن صغار اللؤلؤ أنصع بياضاً من كباره، فهل تكذبان بهذه النعم المتعلقة بالنظر والتمتع . وأستعمل فى التشبيه كأن دون الكاف لشدة دلالتها على التشبيه وكأنه المشبه والمشبه به شىء واحد ليس بينهما تفاوت.

﴿ هَلْ جَزَاءُ الإِحْسَانِ إِلاَّ الإِحْسَانُ (٦٠) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦١) ﴾ هل هنا للنفى: أى ما جزاء الإحسان فى العمل إلا الجزاء فى الثواب. وعن أنس أن رسول الله «صلى الله عليه وسلم» قال : هل جزاء من أنعمت عليه بمعرفتى وتوحيدى إلا أسكنه جنتي، وحظيرة قدسى برحمتي. فهل تكذبان نعمه الواصلة فى الدنيا والآخرة، والاستفهام هنا بمعنى النفي.

﴿ وَمِن دُونِهِمَا جَنَّتَانِ (٦٢) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٣) ﴾ أى : ومن دون تلك الجنتين الموعودتين للخائفين المقربين ، جنتان أخريان لمن دونهم من أصحاب اليمين ، فالخائفون قسمان :

المقربون ، وأصحاب اليمين، وهم دون المقربين بحسب الفضائل العلمية والعملية ، فالجنتان الأوليان أفضل من الأخريين كفضل المقربين على الأبرار ، فهل تكذبان مما ذكر من الجنتين؟.

﴿ مُدْهَامَّتَانِ (٦٤) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٥) ﴾ مدهامتان : صفة للجنتين ، والمدهم : الأسود؛ لأن الدهمة بالضم السواد، والأدهم : الأسود ، ومدهامتان : سوداوان أى علا لونهما سواد من شدة الخضرة والريّ ، وإن شئت قلت : خضراوان

تضربان إلى السواد من شدة الخضرة، فهل تكذبان ما تتمتع به أبصاركم بخضرة نباتات هاتين الجنتين ، وتنتفع أنوفكم بشم رياحينهما.

﴿ فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ (٦٦) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٧) ﴾ نضخ الماء : اشتد فورانه من ينبوعه ، أى فوارتان بالماء لا تنقطعان فهما تنضخان بالمسك والعنبر، كما تنضخان بالخير والبركة، فهل تكذبان ما حصل لكم من الرى من شراب هاتين العينين. وقدم الجار والمجرور « فيهما » . لاختصاص الجنتين بهاتين العينين.

﴿ فِيهِمَا فَاكِهَةٌ وَنَخْلٌ وَرُمَّانٌ (٦٨) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٦٩) ﴾ ثمار النخل والرمان فاكهة، ولكنه عطفهما على الفاكهة؛ بياناً لفضلهما؛ فإن ثمرة النخل فاكهة وغذاء، والرمان فاكهة ودواء، بحسب حال الدنيا، وإلا فالكل فى الجنة للتفكه، فهل تكذبان ما هيأ الله لكم ما به تتلذذون من الفواكه.

﴿ فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ (٧٠) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧١) ﴾ صفة أخرى للجنتين ، وخيرات جمع خيرة، أى لسن بذفرات ولا بخرات. والذفر: النتن، والبخر النتن فى الفم تحت الإبط، وبين الثنايا فى الجسم ولا متطلعات بالتعقيب على ما يسمعن من الكلام ، ولا متطاولات ، ولا سليطات اللسان ، ولا طماحات ، أى تطمح ببصرها إلى الرجال ، ولا طوافات فى الطرقات ؛ بل هن حسان الخُلق والخلق . فهل تكذبان مامنّ الله عليكم بما تستمتعون به من النساء الحسناوات؟

﴿ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ (٧٢) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٣) ﴾ حور : جمع حوراء وهى البيضاء، المقصورة فى الخيام : اللائى قصرن فى خدورهن وحبسن، أى مخدرات مستورات لا يخرجن، مقصورات الطرف على أزواجهن لا يبغين بهم بدلا.

والخيام : جمع خيمة ، وهى القبة المضروبة على الأعواد ، وخيام الدنيا لاتشبه خيام الجنة إلا بالاسم. فهل تكذبان هذه النعم المقصورة عليكم ، المحبوسة لكم .

﴿ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ (٧٤) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٥) ﴾ كرر هذه الآية زيادة فى التشويق ، وتأكيدا للرغبة.

فالأولى فى أزواج المقربين ، وهذه فى أزواج الأبرار.

فهل تكذبان بهذه النعم وهى ليست كنعم الدنيا ؛ إذ قد تطمث المرأة فى

الدنيا، ثم يتزوجها آخر ثيبا ، ولكن نساء الجنة أبكار ، والبكر طيبة الوصال ، بارعة الجمال ، لا يقدر أحد على حكايتها ، ولا يبلغ وصف إلى نهايتها.

﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَىٰ رَفْرَفٍ خُضْرٍ وَعَبْقَرِيٍّ حِسَانٍ (٧٦) فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ (٧٧) ﴾
رفرف : اسم جنس ، أو اسم جمع واحدة رفرفة والرفرف : ضرب من البسط، والوسائد تميل فى لونها إلى الخضرة.

والعبقرى : منسوب إلى عبقر ، تزعم العرب أنه اسم بلد تكثر فيه الجن فينسبون إليه كل شىء عجيب.

وعبقرى حسان : ضرب من الفرش جعله الله لفرش الجنة ، والموصوف عبقرى - وهو مفرد - إلا أن المراد به الجنس ، ولذا وصفه بالجمع وهو حسان نظرا للمعنى.

وقال أولا فى هذه السورة : (متكئين على فرش بطائنها من استبرق) ٥٤.

ذكر البطائن من استبرق ، وترك الظواهر ؛ لرفعة شأنها ، وبعدها عن الأفهام والعقول.

وقال ثانيا : (متكئين على رفرف خضر وعبقرى) ليعلم مدى ما بينهما من تفاوت . والاستبرق : ديباج ، والعبقرى موشى . والديباج أعلى منزلة وأسمى شأنا.

فالاستبرق يناسب المقربين ، والعبقرى يلائم الأبرار.

فهل تكذبان ما هيأ الله لكم ما تتكئون عليه وتستريحون ؟!

﴿ تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ (٧٨) ﴾ وبعد أن ذكر فى هذه السورة الكريمة من آلائه ونعمه التى فاض بها على الأنام، نزه نفسه ، ودعا إلى تقديسه بقوله (تبارك) لما فيه من التقرير والتأكيد بأنه الفياض بهذه النعم على الخلق.

(ذى الجلال والإكرام) وصف نفسه بما يزيده تنزيها وتقريرا بأنه ذو الهيبة ، المانح للعطاء ، فهو الذى له العظمة والكبرياء ، ومن عرف أنه ذو الجلال والإكرام ، هابه لمكان الجلال ، وأنس به لمكان الإكرام ، فكان بين خوف ورجاء والله سبحانه أعلم.

سورة الواقعة

بسم الله الرحمن الرحيم

السورة مكية بالاتفاق إلا آيتى ٨١ , ٨٢ فمدنيتان ، نزلت بعد سورة طه ، آياتها ست وتسعون، وكلماتها ثلاثمائة وثمان وسبعون، نزلت بعد سورة طه. ومن مقاصد السورة :

ظهور واقعة القيامة وأصناف الخلق بالإضافة إلى العذاب والعقوبة. وبيان حال السابقين بالطاعة. وبيان حال قوم يكونون متوسطين بين أهل الطاعة وأهل المعصية ، وذكر حال أصحاب الشِمال ، والغارقين فى بحار الآثام.

وبرهان البعث من ابتداء الخلقة. ودليل الحشر والنشر عن الحرث والزرع، وحديث الماء والنار ، وما تتضمنها من النعمة والمنّة. ومس المصحف ، وقراءته فى حال الطهارة. وحال المتوفى فى ساعة السكرة، وذكر قوم بالبشارة، وقوم بالخسارة، وذكر جلال الحق تبارك وتعالى بالكبرياء (فسبح باسم ربك العظيم).

وفى قوله : (أفرأيتم ما تمنون) الآية ٥٨.

وفى قوله : (أفرأيتم ما تحرثون) الآية ٦٣.

وفى قوله : (أفرأيتم الماء الذى تشربون) الآية ٦٨.

وفى قوله : (أفرأيتم النار التى تورون) الآية ٧١.

بدأ بذكر خلق الإنسان ، ثم بما لا غنى له عنه، وهو الحَبّ الذى منه قُوته وقوّته، ثم الماء الذى منه سوّغه وعجنه، ثم النار التى منها نضجه وصلاحه.

وذكر بعد ذلك عقب كل واحد ما يأتى عليه ويفسده، فقال فى الأول (نحن قدرنا بينكم) وفى الثانية (لو نشاء لجلعناه حطاما) وفى الثالثه (لو نشاء جعلناه أجاجا) ولم يقل فى الرابعة ما يفسدها، بل قال : (نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمقوين) يتعظ بها المسافرون وينتفعون .

وفى فضل السورة حديث ابن مسعود: من قرأ سورة الواقعة فى كل ليلة لم تصبه فاقة أبدا. رواه البيهقى.

وسورة الواقعة تعالج فى المقام الأول قضية البعث، فكان طبيعيًا أن تبدأ السورة بوقوع يوم القيامة، وحين تقع القيامة لا تكون نفس مكذبة لها، وإنما تكون مؤمنة مصدقة، وهى ترفع أقواما وتضع آخرين، وكما تنعكس على الناس تنعكس على الكائنات فالأرض تهتز فى عنف شديد حتى ينهدم كل شىء فوقها من جبال وبناء، والجبال تتفتت وتصبح ذرات متفرقة.

وتفصل السورة مصائر المبعوثين : فهم ثلاثة صنوف : صنفان فى الجنة، وصنف فى النار.

فالسابقون وأصحاب اليمين فى الجنة.

وأصحاب الشمال فى النار .

فالسابقون هم السابقون إلى الجنات، لأنهم سابقون إلى الخيرات، وأصحاب اليمين هم الذين يؤتون صحائفهم بأيمانهم ، والقرآن يصفهم بالسعادة ، ويعظم من شأنهم.

وأصحاب الشمال : هم الذين يؤتون صحائفهم بشمائلهم، فمنزلتهم خسيسة ويصفهم القرآن بالشقاء، ويحقر من شأنهم.

ويذكر المفسرون أن السابقين عددهم كثير من لدن آدم عليه السلام إلى نبينا محمد «صلى الله عليه وسلم» ، وقليل من الأخرين وهم أمة محمد، كما يصف القرآن النعيم الذى يتمتع به السابقون، فهم على سرر منسوجة بالذهب، مستقرين عليها، ينظر بعضهم فى وجوه بعض، يوصفون بحسن العشرة وتهذيب الخلق، يخدمهم غلمان على شكل الولدان، لا يتحولون عن هذه الصفة أبدا، ويطوفون عليهم بكئوس الخمر، التى لا تسبب صداعا ولا سكرا كخمر الدنيا ، يختارون ما يشاءون من صنوف الفاكهة ولحوم الطير، وتحف بهم الحور العين التى تشبه اللآلئ فى الصفاء والصيانة ، لا يسمعون باطلا ولا هذيانا، وإنما يسمعون فيها فقط السلام الذى يفشو بين أهل الجنة، وذلك جزاء لأعمالهم الخيرة فى الدنيا.

أما الصنف الثانى وهم أصحاب اليمين، فتحيط بهم الأشجار التى نزعت

عنها أشواكها حتى يشعروا بالراحة المطلقة، فى ظل ممتد منبسط، وماء جار بلا حدود، وفواكه كثيرة لا يحدها الحصر، دائمة لا تتقطع ، ونساء رفيعة القدر، أنشأناهن ابتداء من غير ولادة، وهن عذارى كلما أتاهن أزواجهن وجدوهن أبكارا، صغار السن متقاربات فى أعمارهن، مستجيبات إلى أزواجهن.

أما الصنف الثالث : أصحاب الشمال فهم فى حرّ نار تنفذ من المسام، وماء متناهٍ فى حرارته ، وظل حار ضار، عكس ما كانوا عليه فى الدنيا من تنعم وترفه، ومداومة على الشرك والذنوب الكبيرة، وسخرية من الحياة الأخروية والبعث، وكانوا يقولون هل نبعث بعد أن نصير ترابا وعظاما؟ إن هذا لشىء عجيب.

ولكن القرآن يرد عليهم : أنتم وآباؤكم، الأولون والآخرون سيجمعون فى موعد محدد وميقات معلوم، أيها الضالون المكذبون، ويعنفهم أشد تعنيف، إذ يسلط عليهم من الجوع ما يضطرهم إلى أكل شجر الزقوم- وهو شجر كريه المنظر مر المذاق- فإذا ملأوا منه البطون سلط عليهم من العطش ما يضطرهم إلى شرب الحميم الذى تقطع أمعاءهم فيشربون منه ولا يرتون ؛ بل يزدادون عطشا به فيعودون إلى شربه مرة أخرى وهكذا.

هذه منازل الأصناف الثلاثة : السابقون ، وأصحاب اليمين، وأصحاب الشمال فإن كنتم تنكرون القيامة، ومراتب الجنة، وجحيم النار، فهل تنكرون هذه الأشياء؟ هل تنكرون المنى الذى يتدفق فى الأرحام فتنشأ منه الخلائق، أنحن خلقناه أم أنتم؟.

وهل تنكرون ما تنبته الأرض، أأنتم زرعتموه أم نحن؟ وفى حديث لا يقولن أحدكم زرعت وليقل حرثت ولو شئنا أن نجعلهم هشيما لفعلنا.

وهذا الماء العذب الذى تشربون، أأنتم أنزلتموه من السحب أم نحن؟ ولو شئنا لجعلناه ملحا أجاجا.

وهذه النار ذات الفوائد العظيمة، أأنتم الخالقون لها أم نحن؟

إن هذا الماء وغيره من صنع الله الذى علينا أن ننزهه عما لا يليق ونسبحه معظمين شاكرين.

ورغم كل ذلك فـأنتم مـتشككون فى القـرآن ، وأقسم بمسـاقط النجـوم: وهو وقت قيام المتهجدين ونزول الرحمة والرضوان عليهم : إنه قرآن فيه الهداية والنفع، ولا ينبغى أن يمسـه إلا من هو على طهارة من الدنس، ولكنكم متهـاونون فى شـأنه، ووضعتم التكذيب موضع الشكر.

ثم تختم السورة بهذا المشهد المؤثر، مشهد الرجل الذى يحتضـر وهم حوله لا يستطيعون أن يمنعوا عنه نـزول الموت، فهل فى استطاعتكم أيها المكذبون أن تردوا إليـه الروح؟ كلا لأنكم مربوبون مقـهورون . والميت واحد من هذه الأصناف الثلاثة التى ذكـرت فى أول السـورة ، فإن كان من المقـربين فهو فى تنعم دائم، وإن كـان من أصـحاب اليـمـين، فـهـو يتلقى السـلام من إخـوانه أهـل الجنة، وإن كـان من الضـالين فهو فى جهنم ، وكل مـا فى هذه السـورة من صنوف المتـاع أو العـذاب حق ثابت متيقن، ليس موضع شك على الإطلاق.

﴿ إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (١) ﴾ إذا قامت القيـامة وحدثت، وذلك عند النفخة الثانية، يكون من الأهوال ما لا يفى به المقال.

وسمـاهـا واقـعـة، أى أنهـا بحسب التـعـبير واقـعـة فى الحـال، وهـى فى الواقع ستقع فى المستقبل وذلك لتحقق وقوعها فاختـار « إذا » التى تدل على جزم وقوع الفعل، كما اختـار الفعل المـاضى الذى يدل على أن الفعل قد وقع وانتهى ، كل هذا يؤكد أنها و اقعته لا محالة.

والواقعة من أسماء القيامة كالصاخة والطامة والآزفة.

﴿ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ (٢) ﴾ أى لا يكون عند وقـوعهـا نفس تكذب على الله، وتفترى بالشـريك والولد والصاحبة، وعدم البعث؛ لأن كل نفس حينئذ مؤمنة صادقة مصدقة، وأكثر النفوس اليوم كاذبة. مكذبة. فاستغنى عن ذكر الموصوف اكتفاء بذكر الصفة ويكنى بالواقعة عن الحرب، وكل سقوط شديد يحدث صوتاً يعبر عنه بالواقعة وسميت بذلك لإحداثها هذا الصوت.

وكل ما ورد فى شأن القيامة من الأخبار حق صادق لا ريب فيه.

﴿ خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ (٣) ﴾ خافضـة لأقـوام رافعـة لآخرين، يرتفع فـيـهـا أناس إلى مـراتب، وينخفض فيـهـا أناس إلى منازل، رافعـة لأوليـاء الله إلى الجنة، وخـافضـة

لأعداء الله إلى النار، وفى ذلك تقرير لعظمة القيامة على سبيل الكناية، كما هو الشأن فى عظائم الأمور التى ترفع وتخفض، وأسند الخفض والرفع إلى القيامة مجازا؛ لأن الرافع الخافض هو الله سبحانه، وقدم الخفض على الرفع للتشديد فى التهويل بشأن المكذبين.

﴿إِذَا رُجَّتِ الْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾﴾ الرجّ : تحريك الشىء ، والرجرجة: الاضطراب أى تخفض وترفع: إذا حركت الأرض تحريكا شديداً بحيث ينهدم ما فوقها من بناء وجبال ، ولا تسكن زلزلتها حتى تلفظ ما فى بطنها على ظهرها.

(بسّت الجبال بسّا) أى فتتت حتى صارت مثل السويق الملتوت ، أو تحركت من أماكنها من بس الغنم : إذا ساقها.

وعبر بالمصدر « رجاً » وبسّا» ليؤكد على فعل الرجّ وفعل البسّ.

﴿فَكَانَتْ هَبَاءً مُّنْبَثًّا ﴿٦﴾﴾ أى صارت بسبب التفتيت والاضطراب غبارا منتشرا متفرقا.

والهباء : الغبار مثل الذى يثور من سنابك الخيل، أو الذى يرى فى شعاع الكوّة أو ما يتطاير من شرر النار ، أو ما تذروه الرياح من الأوراق.

وفى بعض التفاسير : أن الله تعالى يبعث ريحا فتحمل الأرض والجبال وتضرب بعضها ببعض ، ولا تزال كذلك حتى تصير غبارا، ويسقط ذلك الغبار على وجوه الكفار كقوله تعالى : (وجوه يومئذ عليها غبرة) عبس آية ٤٠.

﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ﴿٧﴾﴾ أى أصنافا ثلاثة : اثنان فى الجنة ، وواحد فى النار، وكل صنف يكون مع صنف آخر فى الوجود ، أو فى الذكر، فهو فى كلتا الحالتين يسمى زوجاً، سواء أكان فرداً أم شفعا، جمع أولاً ثم فرق فقال :

﴿فَأَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ مَا أَصْحَابُ الْمَشْأَمَةِ ﴿٩﴾﴾ هذا التعبير سيق به لأجل التعجب من شأن أصحاب اليمين من الفخامة، والتعجب من شأن أصحاب الشمال من الفظاعة، كأنه قال : إذا كنت لم

تعرف أحوالهم العجيبة، فاعرفها تعجب منها، فأصحاب الميمنة فى غاية الحال الحسنة وأصحاب المشأمة فى نهاية الحال السيئة.

وأصحاب الميمنة هم أصحاب المنزلة السنيّة، وأصحاب المشأمة هم أصحاب المنزلة الدنيّة، أخذ من التيمّن بالميامن، والتشاؤم بالشمائل، كما تقول : فلان منى باليمين إذا وصفته بالرفعة، وفلان منى بالشمال إذا وصفته بالضعة، لما يلزم من جهتى اليمين والشمال من رفعة القدر وانحطاطه.

﴿ وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ (١٠) أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ (١١) ﴾ وهؤلاء هم القسم الثالث من الأزواج الثلاثة، وآخر ذكرهم عن أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة، ليقترن ذكرهم ببيان محاسن أحوالهم.

ومعنى السبق : التقدم . والمعنى إجمالاً : هم الذين اشتهرت أحوالهم وعرفت محاسنهم ، وهذا السبق مستعار لإحراز الفضل، فهم المتقدمون إلى ثواب الله وجنته بالأعمال الصالحة، وكرر لفظ « السابقون » تأكيداً وتعظيماً لهم.

وهؤلاء السابقون هم المقربون ، أى قربت درجاتهم إلى العرش العظيم، وأعليت مراتبهم وزكت نفوسهم. وفى ذلك إشارة إلى الفضل الكبير فى حقهم.

﴿ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (١٢) ﴾ أى كائنين فى جنات النعيم، وهم أهل القرآن المتوجون يوم القيامة ، يقال : إنهم يكادون أن يكونوا أنبياء لولا أنه لا يوحى إليهم ، والمراد بأهل القرآن الملازمون لقراءته والمعاملون به.

﴿ ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ (١٣) وَقَلِيلٌ مِّنَ الْآخِرِينَ (١٤) ﴾ الثلة : الجماعة أى هم أمم كثيرة من الأولين غير محصورة العدد، وهم الأمم السالفة من لدن آدم إلى نبينا محمد عليه السلام وقليل من هذه الأمة، أمة محمد عليه السلام، وقلة من الآخرين هى بالنسبة إلى كثرة الأولين، لا أنهم قليل فى أنفسهم، فكثرة كل من الفريقين فى نفسه لا تنافى أكثرية أحدهما على الآخر.

﴿ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ (١٥) ﴾ السرر : جمع سرير والموضونة : منسوجة بالذهب مطعمة بالدر والياقوت ، أو متواصلة من الوضن وهو نسج الدرع، ثم أستعير لكل نسج محكم.

﴿ مُتَّكِئِينَ عَلَيْهَا مُتَقَابِلِينَ (١٦) ﴾ أى مستقرين على سرر قاعدين عليها قعود الملوك للاستراحة متقابلين، لا ينظر بعضهم إلى ظهور بعض، وفى ذلك وصف لهم بطيب العشرة وتهذيب الخلق، وحسن الأدب.

﴿ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُّخَلَّدُونَ (١٧) بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ (١٨) ﴾ أى يطوف عليهم ويدور خدم لهم من الغلمان خالدين أبدا على هذه الصورة من شكل الغلمان وطراوتهم، لا يتحولون عنها أبدا؛ لأنهم خلقوا للبقاء على هذه الصورة.

أو أنهم غلمان مخلدون، مقرطون يلبسون القرطة أى الأقراط فى آذانهم، ومسورون ، يرتدون الأساور فى أيديهم لا يهرمون أبدا، ولا يتجاوزون هذا الوصف.

يطوف هؤلاء الولدان ، جمع وليد، وخدمة الوليد أمتع من خدمة الكبير، بأكواب من ذهب، وآنية لا عرى لها ولا خراطيم ، لا تعوق الشارب عن الشرب من أى موضع أراد منها.

وأباريق : جمع إبريق وهو الذى له عروة وخرطوم ، يبرق لونه من شدة صفائه، وهى لفظة أعجمية معربة.

وكأس من معين : أى كأس من خمر جارية من العيون، وهى خمر ليست كخمر الدنيا تتناول شاربها بالتصدع.

والكأس . القدح إذا كان فيها شراب، فإن لم يكن فيها شراب فهى قدح.

ويقال : الكوب للماء وغيره.

والإبريق لغسل الأيدى

و الكأس لشرب الخمر.

وجمع الأكواب والأباريق وأفرد الكأس لأن عادة أهل الشرب أن يعدوا الخمر فى الأوانى المتعددة، ولكنهم يشربون بكأس واحدة.

﴿ لا يُصَدَّعُونَ عَنهَا وَلاَ يُنْزِفُونَ (١٩) ﴾ الصدع : الشق، ومنه أستعير الصداع، وهو الانشقاق فى الرأس من الوجع، أى لا ينالهم بسبب شربها صداع كما ينالهم ذلك من خمر الدنيا.

قال ابن عباس رضى الله عنه: فى الخمر أربع خصال:

السكر والصداع والقيئ، والبول ، وهذه الخصال ليست فى خمر الجنة، بل لذة بلا أذى.

« ولا ينزفون » أى لا يسكرون ولا تذهب عقولهم ، ولا ينفذ شرابهم وهى من عيوب خمر الدنيا وإذا نفد الشراب: اختلت الصحبة، وانفرط الشمل.

﴿ وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ (٢٠) وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ (٢١) وَحُورٌ عِينٌ (٢٢) كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ (٢٣) جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٤) ﴾ أى يختار أهل الجنة من الفاكهة ما يحبون، يأخذون خيره وأفضله من ألوانها يطوف عليهم الولدان بالفاكهة يتناولونها تلذذا لالحفظ الصحة لاستغنائهم عن ذلك فى الجنة، فهى ليست كطعام نقلق عليه إذا تأخر ونضيق إذا نقص.

ثم ذكر اللحم هو سيد الإدام، وكان العرب يتوسعون بلحوم الإبل، ويعز عندهم لحم الطير وهو أطيب اللحوم ، وكانوا يسمعون بها عند الملوك، فوعدهم الله بها فى الجنة، فهم يتمنون لحم الطير مشويًا أو مطبوخا، مشتهين لها وليسوا مضطرين ولا كارهين.

وليس بعد الطعام والشراب أشهى من اللمس قال (وحور عين) الحور : جمع حوراء وهى المرأة البيضاء، شديدة بياض العين شديدة سوادها، والعين: جمع عيناء، وهى الواسعة الحسنة العين. ووصف هؤلاء الحور بأنهن مصونات محفوظات مثل الدر المخزون فى أصدافه لم تمسه الأيدي، ولم تره الأعين، فيهن نقاء وصفاء.

هذه الأماني، المتحققة فى الجنة من الشراب الحلو، والطعام الطيب والنساء المصونات ، هى جزاء أهل الجنة، جزاء لأعمالهم الصالحات فى الدنيا، فما جزاء الإحسان إلا الإحسان.

﴿ لا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلا تَأْثِيمًا (٢٥) إِلاَّ قِيلاً سَلامًا سَلامًا (٢٦) ﴾ اللغو فى الكلام: ما لا يعتد به ، لأنه لا يورد عن روية أو فكر، فيجرى مجرى اللغو ، وهو صوت العصافير ونحوها من الطيور.

أى لا يسمعون فى الجنة باطلا ولا زورا ولا كذبا.

والتأثيم : نسبة إلى الأثم ، والإثم يؤخر ثواب العمل الصالح ، فأهل الجنة أبرياء عن كل لغو وإثم لا يقولون ولا يسمعون شيئا من ذلك، لكنهم يسمعون السلام، ويفشون السلام، فيسلمون سلاما بعد سلام، والسلام هو الأمن والأمان الذى ينتشر فى ربوع الجنة ، ومغانيها.

وهو من المدح الذى يشبه الذم، حيث نفى اللغو والتأثيم أولا وهى صفة مدح، ثم استثنى ، والاستثناء من المدح ذم ، ولكن قول السلام وإفشاءه ليس ذمًا، بل هو مدح فكان مدحا أتى بعد مدح. فما أجمل التعبير القرآنى !!.

﴿ وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ (٢٧) فِي سِدْرٍ مَّخْضُودٍ (٢٨) وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ (٢٩) وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ (٣٠) وَمَاءٍ مَّسْكُوبٍ (٣١) وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ (٣٢) لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ (٣٣) وَفُرُشٍ مَّرْفُوعَةٍ (٣٤) ﴾ ثم شرع فى تفصيل ما أجمل، كما فصّل شئون السابقين، فأصحاب اليمين ما هم أصحاب اليمين؟ أى لا تدرى ما لهم من الخير والبركة بسبب صفاتهم الفاضلة، ومحاسنهم الكاملة.

و السدر : شجر النبق وهو ثمر معروف محبوب عند العرب يستظل به، فجعل ذلك مثلاً لظل الجنة ونعيمها.

ومخضود : أى بلا شوك، بخلاف سدّر الدنيا فهو مخلوق بشوك، وسدر الجنة بلا شوك. أى أصحاب اليمين فى ظل سدر مخضود، أى فى ظل مريح لشجر سهل ليس فيه أشواك. فعبر بالسدر وأراد ما يلزم منه الظل.

أو أنهم فى السدر نفسه، أى فى الشجر نفسه على سبيل المجاز كما نقول المؤمنون فى نعيم وبهجة، وفى تستعمل للظرفية، والنعمة والبهجة ليست محلاً لهم.

(وطلح منضود) الطلح : هو شجر الموز، وله أوراق كبار، وظل بارد، كما أن أوراق السدر صغار، هذا الشجر قد نضد وتراكب بعضه على بعض من أسفله إلى أعلاه، فيعطى من الظلال والبرودة ما تستروح له النفس.

فينشأ عن أشجار السدر وأشجار الطلح « ظل ممتد » لا يتفاوت ولا ينقص، والعرب تقول للشىء الذى لا ينقطع : ممدود (وماء مسكوب) يسكب لهم ويصيب أينما شاءوا. وكيفما أرادوا بلا جهد ولا تعب. وأكثر ماء العرب من الآبار والبرك

فلاينسكب ، وهم لا يصلون إلى الماء إلا عن طريق الدلاء والرشاء، فوعدوا بالماء الكثير الجارى على حسب الاشتهاء (وفاكهة كثيرة) بحسب الأنواع والأجناس (لامقطوعة) فى وقت من الأوقات كفواكه الدنيا التى تظهر فى وقت من العام ثم تنقطع بقية السنة ، (ولا ممنوعة) عن التناول بوجه من الوجوه ، كبعدها عن الأيدى، أو لانعدام ثمنها ، ونحو ذلك من المحاذير التى تمنع من الوصول إليها .

ويبسط لأصحاب اليمين الفرش الرفيعة القدر، المرتفعة عن الأرض لما فى ذلك من زيادة الرفاهية.

وقيل : الفرش : النساء ، حيث يكنى عن المرأة بالفراش واللباس والإزار، وارتفاعها كونهن على الأرائك ونكر السدر والطلح والظل والماء والفاكهة لتنوعها وتعددها .

﴿ إِنَّا أَنشَأْنَاهُنَّ إِنشَاءً (٣٥) فَجَعَلْنَاهُنَّ أَبْكَارًا (٣٦) عُرُبًا أَتْرَابًا (٣٧) لِأَصْحَابِ الْيَمِينِ (٣٨) ثُلَّةٌ مِّنَ الْأَوَّلِينَ (٣٩) وَثُلَّةٌ مِّنَ الْآخِرِينَ (٤٠) ﴾ المراد من ذكر الفرش الواردة فى الآية السابقة، النساء أو المضاجع التى تدل على النساء دلالة قاطعة. هؤلاء النساء ابتدأنا خلقهن ابتداء جديدا من غير ولادة ، سواء فى البداية أو الإعادة. فى البداية كما فى الحور، لأن الله أنشأهن فى الجنة من غير ولادة وأما الإعادة فكما فى نساء الدنيا جعلهن الله بعد الكبر أترابا على ميلاد واحد فى الاستواء كلما أتاهن أزواجهن وجدوهن أبكارا .

(فجعلناهن أبكارا) أى عذارى بعد أن كن عجائز، والأبكار جمع بكر وسميت المرأة التى لم تفتض بكارتها بكرا، اعتبارا بالثيب، لتقدمها عليها فيما يراد له النساء .

(عربا أترابا) جمع عروب ، كرسل ورسول ، وهى المتحببة إلى زوجها ، أى تبين محبتها لزوجها بشكل من الأشكال فيزداد ميله إليها . وأترابا جمع ترب وهى من ولد معك وفى مثل سنك، أى مستويات فى سن معينة هو أفضل سنى العمر للمرأة والرجل.

وقد خلقناهن وأنشأناهن لأهل الجنة من أصحاب اليمين، وهم أمّة من

الأولين وأمة من الآخرين، وهم جميعاً من أمة محمد عليه السلام، فالتابعون بإحسان ومن جرى مجراهم هم الأولون، وسائر الأمة فى آخر الزمان هم الآخرون.

﴿ وَأَصْحَابُ الشِّمَالِ مَا أَصْحَابُ الشِّمَالِ (٤١) فِي سَمُومٍ وَحَمِيمٍ (٤٢) وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ (٤٣) لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ (٤٤) ﴾ ثم شرع فى أحوال الكافرين وما ينتظرهم من جحيم، فأنت لا تدرى ما مآلهم من الشر، وشدة الحال يوم القيامة ، فهم (فى سموم) أى فى حرّ نار تنفذ من المسام، فتثقب الأبدان، وتحرق الأجساد والأكباد. وفى القاموس : السموم : الريح الحارة تكون غالباً فى النهار، والحرور : الريح الحارة بالليل وقد تكون بالنهار.

والحميم : هو الماء المتناهى فى الحرارة فلا يطاق.

(وظل من يحموم) أى ظل هو دخان أسود بهيم السواد، تقول العرب : أسود يحموم ، إذا كان شديد السواد.

(لا بارد) كسائر الظلال ، (ولا كريم) ولا نافع من أذى الحر لمن يلجأ إليه وقد نفى بذلك ما يتوهم من استرواح الظل، فسماه ظلا.. ثم نفى فائدة الظل عنه، فانتفى أصلا، فتحقق أنه ليس بظل ولا كريم، فالكرم صفة لكل ما يرضى ويجرى فى بابه. وفيه تهكم بأصحاب المشأمة وأنهم لا يستأهلون للظل البارد، والكريم فانتقى أصلا، فتحقق أنه ليس بظل ولا كريم، فالكرم صفة لكل ما يرضى و .. الذى هو من حق المؤمنين فى الجنة :

ونكر السموم والحميم والظل ؛ لتعظيم أمر كل منها ، أى أن كلا منها قد بلغ منتهاه فى الشدة والأذى.

﴿ إِنَّهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ (٤٥) وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ (٤٦) ﴾ كان الترف الذى غرقوا فيه هو سبب ابتلائهم بالعذاب، فكانوا قبل ما ذكر من سوء العذاب فى الدنيا منعمين بأنواع النعم من المآكل والمشرب والمسكن الطيب، والمقام الكريم، منهمكين فى الشهوات فلا جرم عذبوا بنقائض ذلك من الحرمان، والمقام الذليل، والإغراق فى نار الجحيم وكان أيضاً من أسباب عذابهم أنهم يصرون على الشرك، وهو الذنب الأعظم الذى لا ذنب بعده.

وذكر سبب الثواب لأصحاب اليمين ، فلم يقل إنهم كانوا قبل ذلك شاكرين، لأن الثواب فضل من الله لا يستوجبه الشكر أو الطاعة - أما العقاب فهو عدل، فإذا لم يعلم سبب العقاب ، ظن أن ثمة ظلما وقع عليهم ، فكان ذكره السبب فى العذاب ضرورة درءا لهذا الظن.

﴿ وَكَانُوا يُصِرُّونَ عَلَى الْحِنثِ الْعَظِيمِ (٤٦) وَكَانُوا يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٤٧) أَوَ آبَاؤُنَا الأَوَّلُونَ (٤٨) ﴾ أى وكانوا مع شركهم وكفرهم، يقولون، ما ينبئ عن عتوهم وعنادهم إذا فارقنا الحياة وتحولت لحومنا وجلودنا ترابا وعظاما نخرة مفتتة سوف تدب فى أوصالنا الحياة من جديد، وهل يحدث ذلك ويتكرر أمر البعث مع أسلافنا من الآباء والأجداد؟ أليس فى ذلك ما يدعو إلى العجب والإنكار؟!

وقدم التراب على العظام لشدته وعراقته فى الاستبعاد . فالبعث أكثر بعدا حين تتحول الأجسام إلى تراب أو عظام، وإن كان البعد يتحقق فى ظنهم فى غير هاتين الحالتين، إلا أن قدرة الله تعالى تشمل الأحياء والأموات فلا يستبعد عليها شىء فى هذه الصورة أو فى غيرها.

﴿ قُلْ إِنَّ الأَوَّلِينَ وَالآخِرِينَ (٤٩) لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَاتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ (٥٠) ﴾ فالاستفهام هنا انكارى ، وأنكروا البعث على العموم وفى هذه الحاله على وجه الخصوص حالة التحول من التراب والعظام إلى البعث وهى حالة منافية للبعث فى اعتقادهم ، فهم ينكرون البعث بعد هذه الحالة، بل فيه تقوية لإنكارهم خاصة بعد هذه الحالة قل لهم يا محمد رداً على إنكارهم ، وتحقيقاً للحق: إن الأولين والآخرين أنتم وأسلافكم لمجموعون بعد الموت أحياء يوم القيامة ، وهو اليوم الذى تنتهى إليه الدنيا، وعدى مجموعون بإلى فقال « لمجموعون إلى ميقات » وكان حقه أن يتعدى بفي، أى مجموعون فى ميقات يوم معلوم، ولكنه ضمّن معنى « مساقون » إلى ميقات فعداه بإلى.

والميقات : الوقت المحدد ، وأحياناً يستعار للمكان المحدد، كمواقيت الإحرام للحدود التى لا يتجاوزها من يريد دخول مكة إلا محرما.

﴿ ثُمَّ إِنَّكُمْ أَيُّهَا الضَّالُّونَ الْمُكَذِّبُونَ (٥١) لآكِلُونَ مِن شَجَرٍ مِّن زَقُّومٍ (٥٢) فَمَالِئُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ (٥٣) فَشَارِبُونَ عَلَيْهِ مِنَ الْحَمِيمِ (٥٤) فَشَارِبُونَ شُرْبَ الْهِيمِ (٥٥) ﴾ ثم خاطب مشركى

أهل مكة وأضرابهم ممن سار على شاكلتهم فى الكفر ووصفهم بالضلال عن الحق والهدى، كما وصفهم بأنهم مكذبون للبعث وبيّن مصيرهم بأنهم فى جهنم سيأكلون من شجر كريه المنظر والطعم حار فى اللمس، منتن فى الرائحة، يسمى شجر الزقوم، وهى الشجرة الملعونة فى القرآن، وهذه الشجرة رغم كراهتها فهم يملأون بطونهم من شدة الجوع، أو يملأونها جبرا واقتسارا، فى ذلك بيان لزيادة العذاب، وكمال الهوان.

وقال « فمالئون منه » لأن الضمير يعود على الشجر ولكنه أنث وقال « منها » باعتبار معنى التأنيث لزيادة العذاب ، وكمال الهوان.

وقال « فمالئون منها » ولم يقل « فمالئون منه » لأن الضمير يعود على الشجر، ولكنه أنث وقال « منها » باعتبار معنى التأنيث ويشربون بعد أكلها مباشرة دون مهلة، لشدة عطشهم الذى غلب عليهم، يشربون ماء حارا شديد الحرارة ولا يكون شرابهم شرابا معتادا بل يكون مثل شرب الهيم، وهى الإبل التى بها الهيام ، وهو داء يصيب الإبل يشبه الاستسقاء، فتشرب ولا ترتوى إلى أن تسقم أو تموت، والهيم جمع أهيم وهيماء .

والمعنى : أن الله يسلط عليهم من الجوع والتهاب النار فى أحشائهم ، مايضطرهم إلى أكل الزقوم الذى كالمهل ، فإذا ملأوا منه بطونهم وهو فى غاية الحرارة والمرارة، سلط الله عليهم من العطش ما يدفعهم إلى شرب الحميم الذى يقطع الأمعاء، فيشربونه شرب الإبل العطاش، وفيه زيادة لبيان العذاب أيضاً.

أى : لا يكون شربكم أيها الضالون المكذبون كشرب من يشرب ، ماء حارا منتنا، فإنه يمسك عنه إذا وجده مؤلما، بخلاف شربكم، فإنكم تلزمون بأن تشربوا منه مثل ما يشرب الجمل الأهيم والناقة الهيماء فإنها تشرب ولا ترتوى ، فتعبّ منه عبّا ، ظنا أنها تروى ولن تروى .

﴿ هَذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٥٦﴾ ﴾ النزل : ما يعد للضيف النازل تكريماً له.

هذا الذى ذكر من أكل الزقوم ، وشرب الحميم هو رزقهم الذى ينتظرهم، وهذا الرزق كالنزل المعد لاستقبال الزائر، معد له يوم الجزاء، فإذا كان هذا الهوان

والذلة نزلهم فما ظنك بحالهم بعد أن يشملهم الاستقرار وتطمئن بهم الديار فى النار. وهل ترى تهكماً ألذع من هذا التهكم؟.

﴿ نَحْنُ خَلَقْنَاكُمْ فَلَوْلا تُصَدِّقُونَ ﴿٥٧﴾ ﴾ نحن لا غيرنا الذين أكرمناكم بالخلق والإنشاء، فلِمَ لا تصدقون أيها الكفرة بالبعث، فمن يقدر على الإبداء لاشك يقدر على الإعادة.

﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ ﴿٥٨﴾ أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ ﴿٥٩﴾ نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ ﴿٦٠﴾ عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الأُولَىٰ فَلَوْلا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ أخبرونى : ألم تروا ما تقذفونه وتصبونه فى أرحام النساء من النطف التى يتكون منها الولد، يريد أن يقررهم بأن هذا المنّى الحقير، يكون سبباً فى هذا الخلق العظيم، أليس فى ذلك ما يدهش ويعجب ؟.

نقول منيّت الشىء أمنّيه، إذا قضيته ، وسمى المنّى منيّا، لأن الخلق منه يُقضى ويكون .

(أأنتم تخلقونه) وتقدرونه وتصورونه بشرا سويا فى بطون النساء ذكرا أم أنثى؟ كلا بالطبع ففى الاستفهام إنكار خلقهم إياه، وتقرير بعدم هذه الخلقة منهم (أم نحن الخالقون) بل نحن الخالقون للبشر المكون من هذه النطفة الحقيرة.

(نحن قدرنا بينكم الموت) أى قسمناه عليكم،. وجعلنا موت كل أحد بتوقيت معين حسبما تقتضيه مشيئة الله سبحانه.، ومشيئته مبنية على حكمة بالغة لاتخطئ فمنهم من يموت صغيراً، ومنهم من يموت كبيرا، وقد ثبت أن إبراهيم عليه السلام تعلق بابنه إسماعيل فابتلى بذبحه، وكذا يعقوب تعلق بابنه يوسف فابتلى بفراقه. فهذه كلها مقادير يجب الرضا عنها والتسليم بها: ولم يسبقنا أحد فى الخلق ولا فى الموت بموعده المحدد.

ونحن قادرون (على أن نبدل أمثالكم) أى نذهبكم ونأتى بغيركم ممن هم على شاكلتكم فى الخلق (وننشئكم فيما لا تعلمون) من الخلق والأطوار لا تعهدون مثلها. وفى الآية وعيد بأن الله قادر على أن يخلق أمثالكم بدلاً منكم، ويعمل على مسخكم من صوركم إلى صور أخرى أكثر قبحا وسوءا.

ويؤكد باللام وقد (ولقد علمتم النشأة الأولى) على خلقتهم أول الأمر من نطفة المني، ثم من علقة، ثم من مضغة، ويحضّهم على هذا التذكر (فلولا تذكرون) فهلا تتذكرون أن من قدر على الخلق الأول قادر على إعادته حتماً، فهى أقل وأسهل من الخلقه الأولى.

﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧) ﴾ أخبروني ألم تروا ماتبذرونه من الحب ، وتروونه بالسقى، وتهيئونه للزرع والنماء؟ أأنتم تنبتونه أم نحن المنبتون له وفى الحديث « لا يقولن أحدكم زرعت وليقل حرثت فإن الزارع هو الله » فالزارع هو الله ولسنا نحن ففى الآية إذن معنى التخصيص والقصر.

ولو أردنا أن نجعل الزرع يابسا متفتتا بعد إنباته، وطمعتم فى حيازة غلّته وجمعها لفعلنا وصرتم بسبب هذا الفعل تتعجبون من سوء حاله التى آل إليها بعد ما شهدتموه على أحسن حال، وأنفقتم عليه من الجهد والمال . والتفكه : التنقل بصنوف الفاكهة ، وقد استعير للتنقل بالحديث.

((إنا لمغرمون) أى قائلين : إنا لملزمون غرامة ما أنفقنا ، أم مهلكون بهلاك رزقنا أو بشؤم معاصينا.

(بل نحن محرومون) أى ممنوعون من الرزق، لاحظ لنا، ولو كنا محظوظين مجدودين لما فسد علينا زرعنا.

وفى الآية إشارة إلى أن الله هو الذى يعطى ويمنع بسبب وبغير سبب .

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ (٦٩) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ (٧٠) ﴾ وقد رأيتم الماء الذى تشربونه عذبا فراتا، وتستعملونه فى شتى المقاصد والأغراض وخص الماء بالشرب دون غيره من المنافع ، لأن أهم مقاصد الماء هى الشرب، وما بعده من المنافع كالاغتسال ، وتنظيف الأشياء ، وترويج الأجواء، يأتى تبعاً لأهمية الماء للشرب. وقدم الماء على تشربون ، للاهتمام بالمفعول به دون تخصيص لأن الماء يستعمل فى الشرب وغيره فلا يصح التخصيص.

وهذا الماء بفوائده المتعددة، هل أنتم المنزلون له من السحب أم نحن المنزلون له بقدرتنا وحكمتنا. ألا ترون أننا أرحم بكم من أنفسكم ، ونعمل على راحتكم ونفعكم، ولكنكم لا تقرون بذلك ، لأنكم معاندون مشاكسون لا ينفع معكم العطاء، ولا تجدى النعمة.

وهذا الماء العذب الفرات لو شئنا جعلناه أجاجا ملحا شديد الملوحة لا يمكن شربه وتعافه النفس.

وقال هنا فى الماء (لو نشاء جعلناه أجاجا) بدون لام وقال هناك فى المطعوم (لو نشاء لجعلناه حطاما) آية ٦٥ بالام. لأن أمر المطعوم مقدم على أمر المشروب فى الأهمية وصعوبة الفقد. وأن الوعيد بفقده أشد وأصعب، لأن المشروب إنما يحتاج إليه تبعاً للمطعوم ومع ذكر المطعوم والمشروب فهلا تشكرون ما أوجدهما بتوحيده وإطاعة أوامره. وعبر بهلا لما فيها من معنى الزجر والحث دون رفق أو هوادة ، لأنهم كفروا بأنعم الله فاستحقوا التعنيف والتبكيت .

وامتن الله على عباده بالماء، لأن بعض بلاد العرب ليس لها آبار ولا أنهار جارية، ولا يشرب أهلها إلا من الأمطار ومنها القدس الشريف، وينبع وجّده ونحو ذلك ، وللماء العذب مزيد فضل فى هذه البلاد.

ثم يعدد نعمه على عباده ، بعد أن ذكر المطعوم والمشروب ، ذكر النار وحاجة القوم إليها.

﴿ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧١﴾ أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ ﴿٧٢﴾ نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعًا لِّلْمُقْوِينَ ﴿٧٣﴾ ﴾ (أفرأيتم النار التى تورون) الإيراء هو القدح بالزناد فتخرج منه شرارة النار، والعرب تقدح بعودين تحكّ أحدهما مع الآخر، ويسمون الأعلى الزند والأسفل الزندة.

فهل أنتم أيها الناس أنشأتم الشجرة التى منها الزند، أم نحن الذين أنشأناها بقدرتنا، وفى الاستفهام (أأنتم) معنى التقرير والاعتراف بأن الله هو الخالق لهذه الشجرة التى يؤخذ منها الزناد ، وتشتعل النار من الزند، ولسنا نحن الخالقين لها.

وفى هذه النار، وهى شرارة النار فى الدنيا ، تذكير لنا بنار جهنم الشديدة

فى الآخرة فلننظر إلى هذه النار الدنيوية ونعتبر بها، لنتذكر النار الأخروية التى أوعدنا بها إذا خرجنا عن طاعة الله. فما أخف هذه النار بالإضافة إلى نار جهنم.

وقد روى عن النبى «صلى الله عليه وسلم» قوله (ناركم هذه التى يوقدها بنو آدم جزء من سبعين جزءا من حر جهنم)، هذه النار وإن كان فيها تخويف للعاصين حتى يرتدعوا عن غيهم،. ففيها أيضاً منفعة لهم ومتاعاً للمسافرين والمتنقلين من مكان إلى آخر (للمقوين) الذين ينزلون القواء وهو المكان القفر الخالى عن الماء والكلأ والعمران.

وخص « المقوين » المسافرين بالذكر، لأنهم أحوج إليها من غيرهم، ليصطلوا بها من البرد ويجففوا ثيابهم، ويصلحوا طعامهم، وتنير مكانهم ، فتبعد عنهم الهوام والأذى.

﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٧٤) ﴾ أى أحدث التسبيح بذكر اسمه تعالى ، شكراً على تلك النعم ، وإن جحدها الجاحدون.

أو أراد فسبح الله العظيم ونزهه عما لا يليق بذاته العلية، على تلك الآلاء المتعددة يسديها لخلقه ، فهى نعم ظاهرة لا يستطيع أحد مهما بلغ به الجحود أن ينكرها، فالتسبيح باسم الله هو تسبيح بالله ذاته، لأن إطلاق الاسم للشىء ذكر له، فهناك تلازم بين الشىء وذكر اسمه. والمراد هنا بذكر ربه تلاوة القرآن ففى تلاوة القرآن كلام الله لاشك، وذكر له ولتعاليمه الخالدة الصادقة.

﴿ فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ (٧٥) وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ (٧٦) إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ (٧٧) فِي كِتَابٍ مَّكْنُونٍ (٧٨) لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ (٧٩) تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ (٨٠) ﴾ (فلا أقسم) اللام هنا زائدة جىء بها للتوكيد وتقوية الكلام.

أى أقسم بمساقط النجوم فى أماكن غروبها وغيابها، فإذا غابت زال أثرها، فوجود هذه النجوم أولاً، ثم غروبها وإزالة مؤثرها ثانياً، دلالة على وجود مؤثر دائم لا يتغير أليس ذلك مدعاة للقسم بمواقع النجوم؟ أليس وقت اختفاء النجوم من رقعة السماء هو وقت قيام المتهجدين والمبتهلين إلى الله تعالى، أليس هذا الوقت هو وقت نزول الرحمة والرضوان على القوم الصالحين القانتين ؟.

إنه قسم عظيم يدل على عظم قدرة الله، وكمال حكمته ، وفرط رحمته، ومن مقتضيات هذه الرحمة أن لا يترك عباده سدى بغير كتاب، وأقسم بالقرآن، وخص القسم به، لأنه كثير النفع، واشتماله على الأصول التى منها صلاح المعاش والمعاد، صلاح الدنيا ، والآخرة ووصف القرآن بأنه كريم (إنه لقرآن كريم) على سبيل الاستعارة استعار الكرم. « من ذوى العقول ، ومن أصحابه إلى غيرهم وهو القرآن، أو هو كريم عند الله، لأنه يدل على مكارم الأخلاق، وشرائف الأفعال، ومعالى الأمور، أو أنه قرآن كريم، لأنه نزل من الكريم بواسطة الكرام، إلى أكرم الخلق.

(فى كتاب مكنون) محفوظ عن التحريف، مصون من غير المقربين من الملائكة إذ لا يطلع على اللوح المحفوظ سوى المقربين منهم.

ثم وصف القرآن بوصف آخر يسمو بمنزلته ، إذا (لا يمسه إلا المطهرون) من الملائكة المنزهين عن الأوضار، المطهرين من الأحداث مطلقا، فلا يمسه إلا من كان على طهارة من الأدناس كالحدث والجنابة وغير ذلك.

ثم بلغ بأوصاف القرآن القمة حين نعته بقوله : (تنزيل من رب العالمين) أى منزل من قبل الله تعالى ، فلا يدخله الشك، ولا ينبغى أن نجادل فيه، أو نطعن فى شرائعه، ولم تتنزل به الشياطين ، حتى يكون موضعاً للتكذيب أو التزييف.

﴿ أَفَبِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ (٨١) وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ (٨٢) ﴾ (أفبهذا الحديث) الحديث هنا كناية عن القرآن الكريم وسماه حديثاً لأن فيه حوادث الأمور، وأصل الكلام « أفأنتم مدهنون بهذا الحديث » ولكنه قدم الجار والمجرور « بهذا الحديث » لأهمية الكلام عنه.

فالله سبحانه يخاطب أهل مكة ويصفهم بالمداهنة، أى المداراة والملاينة وترك الجد، مما يدل على تهاونهم فى شأن القرآن محتقرين له، كمن يدهن فى الأمر، ولا يتصلب فيه تهاونا بقدره.

والاستفهام هنا يفيد الإنكار، أى أنه ينكر عليهم هذا التهاون بقدر القرآن الذى لا يتساوى معه قدر شىء آخر مهما كان عزيزاً مهيبا.

(وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون) يشتد الله سبحانه فى الإنكار عليهم وتوبيخهم ، وينحى باللائحة عليهم ، لأنهم لم يعترفوا بنعمة القرآن ولم يشكروا هذا

الرزق الذى أنزل الله عليهم؛ بل كذبوا به وكذبوّا من أنزله، وكذبوا من أنزل عليه، فوضعوا التكذيب موضع الشكر، وأحلوا الكذب محل الصدق، ونسبوا نزول القرآن للأنواء والسحب، ولذلك يقول رسول الله «صلى الله عليه وسلم» (أخوف ما أخاف على أمتى حيف الأئمة، التكذيب بالقدر والإيمان بالنجوم » وكان عليه السلام يقول :

« لو حبس الله القطر عن أمتى عشر سنين ثم أنزل، لأصبحت طائفة منهم يقولون : سقينا بنوء كذا» أى أنكروا أن يكون الله هو الذى أنزل عليهم القطر رحمة منه ونسبوه للأمطار وفعل السحاب.

﴿ فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَكِن لاَّ تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ ﴾ الحلقوم : مجرى النفس ، والبلعوم: مجرى الطعام.

أى هلا إذا بلغت روح أحدكم الحلقوم ، وتداعت إلى الخروج، فالآية كناية عن الروح التى لم يرد لها ذكر ، وإنما هى مفهومة من السياق.

وأستعمل لولا المفيدة للتخفيض ، حتى يظهر عجزهم وهم بهذه الحال من مفارقة أرواحهم لأبدانهم فلا يستطيعون تجاه ذلك أن يصنعوا شيئا، من دفع الموت عنهم أو إعادة الصحة إليهم .

(وأنتم) أيها الحاضرون مجلس الموت والفراق (حينئذ تنظرون) إلى صاحبكم وهو ما هو فيه من الغمرات، لا تملكون سوى العطف على حاله. ورغبتكم فى انجائه من المهالك.

(ونحن أقرب إليه منكم) ، أى نحن أقرب إلى المحتضر علما وقدرة وتصرفاً أو نحن أعلم به منكم ، وعبر عن العلم بالقرب؛ لأنه أقوى سبب فى الاطلاع . وعلى الرغم من أنكم تتحلقون حول المحتضر، وتشاهدون آثار الشدة بادية على صفحة وجهه، ولكنكم لا تقفون على أسبابها وحقيقتها وكيفيتها ، فلا تعرفون حاله، ولاتقدرون على رفع أدنى شىء منها ، ونحن المتولون لتفاصيل أحواله بعلمنا وقدرتنا (ولكن لا تبصرون) من البصيرة لا من البصرُ، أى لا تدركون كوننا أعلم به منكم ، ولا تدركون أيضاً كنه ما يجرى عليه لجهلكم بشئوننا.

﴿ فَلَوْلا إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ غير مدينين :

غير مملوكين أذلاء، من دان السلطان رعيته إذا ساسهم واستعبدهم ، أى إن كنتم غير مربوبين كما ينبئ عنه عدم تصديقكم بخلقنا إياكم، فهلا ترجعون النفس إلى مقرها بردها إلى بدن ميتكم عند بلوغها الحلقوم إن كنتم صادقين فى اعتقادكم فإذا لم يمكنكم ذلك – فاعلموا أن الأمر ليس بيدكم ، وإنما بيد غيركم ، وهو الله فآمنوا به ولا تتنكروا لرسوله .

﴿ فَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٨٨) فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ (٨٩) ﴾ شرع فى بيان حال المتوفى بعد الممات بعد ما ذكر حاله وقت الوفاة، فإن كان المتوفى من المقربين، أى قريب من درجات العرش، وليس قريبا من الله من حيث الجهة. والمقربون هم أجلّ الأزواج الثلاثة المذكورة فى أول السورة . لهم (روح وريحان وجنة نعيم) أى لهم استراحة ورحمة ، فعبر بالروح وأراد الرحمة، لأن رحمة الله كانت سببا فى حياته وانسياب شئونه، وسببا أيضاً فى حياته الأخروية الدائمة التى لا موت فيها.

والروح لها عدة معان يجدر أن نذكرها.

الروح : روح الأجسام التى تفيض عند الممات.

والروح : جبريل ؛ لأنه كان يأتى للأنبياء بما فيه حياة القلوب.

وعيسى : روح الله ؛ لأنه كان من نفخ جبريل ، وأضيف إلى الله تعظيماً، وكلام الله روح، لأنه حياة من الجهل، وإزالة للكفر.

ورحمة الله روح كقوله تعالى (وأيدهم بروح منه) « المجادلة » آية ٢٢ أى برحمة.

والروح : الرزق ؛ لأنه حياة الأجساد.

والريحان : هو ما يشم وله رائحة طيبة ، أو هو التحية لأهل الجنة .

« وجنة نعيم » أى ذات تنعم ورفاهية.

وبعد أن فرغ من ذكر الحالة التى يعيشها المقربون فى الجنة، وهى حياة كلها طيب ورحمة ونعمة يشرع فى الحالة الثانية ، أو الصنف الثانى من الأزواج الثلاثة وهى حالة أصحاب اليمين :

﴿ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩٠) فَسَلَامٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ (٩١) ﴾ أى إذا

كان من أصحاب اليمين والسعادة ، فسلام لك يا صاحب اليمين، من إخوانك أصحاب اليمين يسلمون عليك وقت الممات وبعد الممات، يبشرونك بأنك من أهل الجنة، فاستعير اليمين للتيمن والبشارة والسعادة التى تنتظرك.

وهنا التفات من الغيبة (إن كان من أصحاب اليمين) إلى الخطاب (فسلام لك من أصحاب اليمين) تشريفاً لهم فخاطبهم بما ينتظرون من سلامة ورفعة وطمأنينة ، وما ينتظر غيرهم من هوان وذلة.

﴿ وَأَمَّا إِن كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ (٩٢) فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ (٩٣) وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ (٩٤) إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ (٩٥) ﴾ فالمكذبون الضالون هم أصحاب الشمال، ووصفهم بأنهم مكذبون ضالون، لأنهم كذبوا بمحمد ، وكذبوا بالبعث، وضلوا عن الحق والهدى ، فكان لهم بسبب ذلك (نزل من حميم) مكان ينزلون فيه ويشربون الماء المغلى بعد أكلهم لشجرة الزقوم الكريه الطعم، الكريه الرائحة (وتصلية جحيم) وقاسوا أهوال النار وألوان العذاب.

وكل ما ذكر فى هذه السورة من تصنيف الناس إلى مراتب بسبب عقيدتهم وأعمالهم ، لهو الحق اليقين الثابت الذى لا يطرأ عليه التبديل أو التغيير ، فتطمئن إليه النفوس ، ويزول ارتيابها واضطرابها ، وفى ذلك تخصيص بأنه الحق الذى لاحق سواه.

﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ (٩٦) ﴾ أى سبح يا محمد باسم ربك العظيم الذى لايدرك كنهه العظيم على كل شىء، العالى على كل قدر، فنزهه عما لا يليق بذاته العلية، واشكره على نعمائه سرائه وضرائه، على كل ما يصيبك من خير، فهى نعم ظاهرة أو باطنة لا يدركها غيره.

أو سبح باسم ربك بمعنى : تلاوة القرآن وهو كلام الله العظيم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وكل ما يتلى من هذه السورة يوجب تنزيهه تعالى عما لا يليق بشأنه الجليل الذى من جملته الإشراك والتكذيب بآياته الناطقة بالحق، والإعراض عن أقوال الكافرين، والإقبال على أمور الآخرة وعبادة الله.

روى أنه لما نزل قوله (فسبح باسم ربك العظيم) قال عليه السلام :

اجـعلوها فـى ركـوعكم، فلمـا نـزل (سـبح باسم ربك الأعلى) قـال اجـعلوهـا فـى سجودكم.

وخص سبحان ربى العظيم بالركوع إشارة إلى مرتبة الحيوان ، وخص سبحان ربى الأعلى بالسجود إشارة إلى مرتبة النبات والجماد، فلابد من الترقى فى التنزيه، ولهذا شـرع التسبيح فى الهبوط من القيام إلى الركوع، ثم من الركوع إلى السجود يقول عليه السلام : « من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبدا» حديث صحيح . يقول الإمام الغزالى رحمه الله فى منهاج العابدين « قراءة هذه السورة عند الشدة فى أمر الرزق والخصاصة شىء وردت به الأخبار المأثورة عن النبى عليه السلام وعن الصحابة رضى الله عنهم، ومن أراد أن يعلم نبأ الأولين والآخرين ، ونبأ أهل الجنة وأهل النار ، ونبأ الآخرة فليقرأ سورة الواقعة.

* * *

سورة الحديد

بسم الله الرحمن الرحيم

السورة مدنية وآياتها تسع وعشرون ، وكلماتها خمسمائه وأربع وأربعون، نزلت بعد الزلزلة.

وسميت السورة بسورة الحديد لقوله تعالى فيها :

﴿ وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ﴾ الآية ٢٥.

ومن مقاصد السورة : تسبيح جميع المخلوقات و المخلوقين فى الأرض وفى السماوات ، وتنزيه الله تعالى فى ذاته وفى صفاته، وأمر المؤمنين بالصدقات والنفقات، وحيرة المنافقين فى ساحات القيامة، وبيان خسّة الدنيا، وعز الجنات، وتسلية الخلق عند هجوم النكبات و المصيبات.

وعن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله «صلى الله عليه وسلم» كان يدعو عند النوم.

« اللهم رب السماوات السبع ورب العرش العظيم ، ربنا ورب كل شىء، منزل التوراة والإنجيل والفرقان، فالق الحب والنوى، لا إله إلا أنت ، أعوذ بك من شر كل شىء أنت آخذ بناصيته.

أنت الأول ، فليس قبلك شىء.

وأنت الآخر، فليس بعدك شىء.

وأنت الظاهر ، فليس فوقك شىء.

وأنت الباطن ، فليس دونك شىء .

اقض عنا الدين وأغننا من الفقر.

رواه مسلم.

وفى بيان فضل السورة حديث علي رضى الله عنه.

يا عليّ من قرأها شرّكه الله فى ثواب المجاهدين، ولا يغلّه بأغلال النار ، وله بكل آية قرأها مثل ثواب القائم بما أمر الله.

افتتحت السورة بالتسبيح ، ومعنى سبحته . أبعدته عن السوء، وجعلت التسبيح خالصاً لوجهه تعالى، والله تسبح له جميع الكائنات فى السماوات وفى الأرض، ومن يترك التسبيح عنادا ينتقم الله منه، ومن يسبحه طواعية يجازيه على تسبيحه، وتنزيهه عن كل نقص. فهو وحده مالك للسماء والأرض، وهو القادر على الإحياء والموت ، وهو المستمر الوجود فى جميع الأوقات الماضية والحاضرة والآتية ، وهو فى جميعها ظاهر وباطن وهو عليم بكل شىء، وهو الذى خلق السماوات والأرض فى ستة أيام لا يعلم حقيقتها إلا هو، وكان بقدرته أن يخلقهما فى لحظة خاطفة، ثم استولى على العرش ، وهيمن على الخلق، لا تفوته ذرة فى الكون، فهو يعلم ما يدخل فى الأرض من البذر والغيث، وما تحتويه من كنوز وأموات، ويعلم ما يخرج منها من نبات ، وما تلفظه من معادن، وما ينزل من السماء من غيث وأمطار وملائكة، وما يصعد إليها من دعوات وأعمال، والله معنا ملازم لنا فى كل لحظة، يحفّنا بفضله ورحمته، رغم أنه يجازينا بحسب أعمالنا.

وكما أن الله يعلم ا لأشياء الظاهرة كإدخال الليل فى النهار، وإدخال النهار فى الليل، فهو يعلم أيضاً أدق المشاعر، وأخفى الخوالج التى تعتمل بالصدور وتنبض بها القلوب.

وبعد أن تظهر للخلق قدرة الله العظيمة ، يأمرنا بالإيمان به وبرسوله محمد «صلى الله عليه وسلم»، كما يأمرنا بالإنفاق فى سبيل الله ، فالأموال التى فى أيدينا ليست أموالنا فى الحقيقة ، وإنما هى مال الله، ونحن وكلاء عنه، مستخلفون فى إنفاقه فى حقوق الله تعالي، وعندئذ يهون الإنفاق كما يهون على الرجل أن ينفق من مال غيره إذا أذن له فيه، ثم يعد المؤمنين والمنفقين بأن لهم منزلة عظيمة، وأجراً كبيراً، وأى عذر لهم فى ترك الإيمان والرسول يدعوهم إليه، ومكنهم من النظر فى الأدلة بما ركب فيهم من العقول، فما لكم لا تؤمنون ؟.

والله يدعونا إلى الإيمان ، وقد أنزل على رسوله القرآن ليخرج الناس من

ظلمات الكفر إلى نور الهدى، فهو رحيم بنا أشد الرحمة. ثم تعود السورة مرة أخرى إلى الإنفاق ، فكيف ننفق فى سبيل الله ، والله وارث الأموال والأرواح، وبين فضل المهاجرين على الأنصار فى الإنفاق ، فبعد الهجرة عز الإسلام ، وقوى المسلمون وكثر عددهم بخلاف قبل الهجرة، فقد كانوا ضعفاء قلّة، وشتان بين الحالتين والجنة لكلا الفريقين مع تفاوت فى الدرجة، وسمى القرآن الإنفاق قرضا حسنا، لأنه يخرج عن طيب نفس، فيضاعف لهم الأجر، فنورهم يسعى بين أيديهم، وتبشرهم الملائكة بدخول الجنة وما فيها من نعيم ، وهل هناك فوز أبعد من ذلك .

ويصور لنا القرآن مشهدا من مشاهد القيامة حين يتوسل المنافقون إلى المؤمنين المسرعين للجنة أن ينظروهم ، ليستنيروا بضيائهم، فيتهكم المؤمنون عليهم قائلين ، بل ارجعوا إلى الدنيا فتؤمنوا، وعندئذ تحصلون على النور الذى تفقدونه الآن، وهكذا يصور القرآن المؤمنين فى جانب والمنافقين فى جانب آخر، وبينهما حائل يفصل بين الجنة حيث المؤمنين، والنار حيث المنافقين ، ولكن المنافقين لا يذعنون لهذا المصير، فيزداد توسلهم وينادون المؤمنين، لقد كنا معكم فى الدنيا مرافقين لكم، فيرد عليهم المؤمنون فى حوار جميل مقنع، نعم كنتم معنا فى الدنيا ، مرافقين لنا، ولكنكم فتنتم أنفسكم بالنفاق، وتربصتم بالمؤمنين الدوائر، وشككتم فى التوحيد، وغركم الأمل فى امتداد العمر إلى أن لحق بكم الموت، وقد غركم الشيطان بأن الله لن يعذبكم ، لأنه كريم عفو غفور. فاليوم مصيركم جهنم أنتم والكافرون فهى أولى بكم، وبئس مصيركم.

ثم يعاتب القرآن المؤمنين عتابا رقيقا مؤثراً لأنهم لم يخشعوا لذكر الله بالطاعة والاستسلام ، فدخل قلوبهم شىء من القسوة ونهاهم عن مماثلة أهل الكتاب ووبخهم على قسوة قلوبهم ، وخاصة عندما طال عليهم الزمن، واتبعوا شهوتهم، فقليل منهم هم المؤمنون إيماناً حقيقياً ، وكثير منهم فاسقون خارجون عن دينهم ويمثل القرآن حالة المؤمنين التى يحييها ذكر القرآن بالغيث الذى يحيى الأرض بعد جفافها فتنتشر فيها الخضرة وتشع منها البهجة، يبين القرآن أن المتصدق حين يتصدق لا يتفضل على من يتصدق عليه ، لأنه فى واقع الأمر لايتعامل مع الناس، ولكن يتعامل مع الخالق فهو يقرض الله ، والله يرده له ثوابا مضاعفا.

والمؤمنون بمنزلة الصديقين والشهداء، لهم مثل أجرهم ومثل نورهم، على خلاف حال الكافرين ، فهم فى نار جهنم باقون مستمرون.

ثم يهون القرآن من شأن الدنيا ، ويزهد فى أمرها، فهى مجرد لعب كلعب الصبيان، ولهو كلهو الفتيان، وزينة كزينة النسوان، وتفاخر كتفاخر الأقران وتكاثر كتكاثر الأعيان، يتباهون بأموالهم وأولادهم، وشأن الدنيا كشأن النبات يسقيه الغيث فيعجب الناس، ثم يهيج فيصفر ويذبل ويصير حطاما، فالدنيا تملأ الأنظار والأسماع، وفجأة تنتهى الحياة وتصبح كأن لم تكن، ولكن العبرة بالآخرة، فيها العذاب للكافرين ، والرضوان للمؤمنين من الله الحميد فسارعوا أيها الناس إلى المغفرة، ودخول الجنة بأعمالكم الصالحة ، هذه الجنة الفسيحة التى لا يقاس اتساعها بمقاييس الدنيا، قد أعدت للمؤمنين.

ثم بين القرآن أن كل شىء بقضاء الله وقدره ، فما يصيبنا من مصائب فى الجدب والزرع، أو فى أنفسنا من الأمراض والأوصاب ، إلا هو مدون فى اللوح المحفوظ من قبل أن نخلق ونرى الدنيا، وذلك شىء يسير على الله ليس بعسير وإن كان عسيرا على العباد ، فينبغى ألا نحزن على خير يفوتنا، ولا نفرح بشىء يصيبنا، فالفرح يؤدى إلى الخيلاء والتكبر على الناس. ومن يفرح فرحاً شديداً إذا رزق مالا يبخل به على نفسه ، ويأمر غيره بالبخل ويحض عليه، ومن يعرض عن الإنفاق فالله ليس فى حاجة إلى إنفاقه فهو غنى فى أفعاله محمود فى صفاته.

ثم يعرض القرآن باختصار تاريخ الرسالة من عهد نوح وإبراهيم عليهم السلام إلى زمن محمد «صلى الله عليه وسلم»، مارا بعيسى ابن مريم عليه السلام. وأثر هذه الرسالات على المخلوقات . فقد أرسل الله أنبياءه بالمعجزات، وأنزل عليهم الكتب والوحي، وأمرهم بنشر العدل بين الناس ، كما أنزل الحديد، وفى الحديد منافع للناس ، ويستعمل فى القتال بعد إعداده كسلاح يجاهدون به أعداء الدين ، فهو قوة فى السلم وقوة فى الحرب.

وخص نوحا وإبراهيم بالذكر، لأنهما أبوان للأنبياء وهما الدوحة العظيمة التى انبثقت منهما الذرية، والذرية مختلفة، فمنهم المهتدى ومنهم الفاسق، ومنهم من أطاع دعوة الرسل واتبع سبيلهم ، ومنهم من خرج عن الطاعة وأمعن فى

الضلال، وهم الغلبة الكثيرة، ويطوى القرآن ذكر الأنبياء أن يصل إلى عيسى عليه السلام الذى نزل عليه الإنجيل، وجعل فى قلوب أتباعه الرأفة والرحمة واللين مع إخوانهم ثم ابتدعوا الرهبانية وفروا إلى الجبال خوفا على حياتهم وأخلصوا للعبادة، هذه الرهبانية لم نفرضها عليهم ولكنهم ابتدعوها ابتغاء رضوان الله، ولكن كثيرا منهم لم يوفها حقها من الرعاية وقليل منهم اتبع عيسى عليه السلام وآمن بتعاليمه.

وفى النهاية يخاطب القرآن أهل مكة المؤمنين، ويحثهم على استمرار الإيمان والتقوي، ومن يحرص على ذلك فله أجران من رحمة الله ، أجر لإيمانه بمحمد «صلى الله عليه وسلم» ، وأجر آخر لإيمانه بالرسل قبل محمد ويغفر له ذنوبه.

أما أهل الكتاب فليس لهم ثواب ولا أجر، ولا ينالون شيئاً من فضل الله ، لأنهم لم يؤمنوا برسول الله فلم ينفعهم أيمانهم بمن قبله ومع أن فضل الله عظيم إلا أنه يؤتيه لمن يشاء من عباده دون غيرهم .

﴿ سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ① ﴾ التسبيح : تنزيه الله تعالى اعتقاداً وقولاً وعملاً عما لا يليق بجنابه سبحانه . والتسبيح يوجد من جميع المخلوقات فى جميع الأزمنة والأوقات ، لأن صيغة الماضى هنا جردت عن الدلالة على مدلولها من الزمان المخصوص، فأشعر باستمراره فى كل الأزمنة، ولا يختص تسبيحها بوقت دون وقت، بل هى مسبحة أبدا فى الماضى ومسبحة أبدا فى المستقبل.

واللام فى « لله » مزيدة للتأكيد كما فى قولك نصحتك : نصحت لك ، وشكرت لك أى شكرتك، والمراد بما فى السماوات والأرض: جميع المخلوقات من حى وجماد، وجاء « بما » وهى تستعمل فى غير العاقل تغليباً ، ففى الأرض وربما فى السماء مخلوقات عاقلة .

وليس الأمر متعلقاً بمخلوقات الأرض والسماوات فقط، بل بكل مافيهما من شمس وقمر ونجوم، وإنس وجن، وحيوان ونبات، وجماد ، وكل أولئك وهؤلاء لها حياة وفهم وإدراك، وتسبيح وحمد، كما فى قوله تعالى ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ ﴾ الإسراء ٤٤.

وفى ذلك إشعار بأن العلة فى هذا التسبيح ، أن الله عزيز حكيم ، عزيز بقدرته وسلطانه لا ينازعه أحد أو شىء، لأن العزة هى الغلبة التى تدل على كمال القدرة.

حكيم بلطفه وتدبيره، لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة والمصلحة؛ لأن الحكمة تدل على كمال العلم والعقل ، وبهذين الوصفين عزيز وحكيم يكون الله سبحانه منزهاً عن كل نقص كالعجز والجهل.

﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٢ هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۝٣ ﴾ أى له التصرف الكلى ونفوذ الأمر فى السماوات والأرض وما تحتويهما من الموجودات ، من حيث الوجود والعدم وسائر التصرفات ، ما نعلم منها وما لا نعلم فهو يحيى الموتى ويميت الأحياء، وهو على كل شىء قدير تام القدرة.

فقدم الخبر (له ملك) ليفيد الاختصاص ، وأن الله وحده هو المالك للسموات والأرض لا ينازعه أحد ، وطابق بين السماوات والأرض ، كما طابق بين (يحيى ويميت) لبيان عموم سيطرته على جميع المخلوقات وليس على بعض دون بعض .

ووصف نفسه بأنه « قدير » كما وصف نفسه فى الآية السابقة بأنه « عزيز حكيم » أى بالغ فى قدرته وعزته وحكمته شأوا بعيداً لا يدرك كما يدل عليه التعبير بصيغة المبالغة.

(هو الأول) السابق على سائر الموجودات ، فهو الذى أنشأها وهو الذى أبدعها « والآخر » الباقى بعد فنائها « الظاهر » بدلائله الواضحة التى لا تخطئ فهى برهان على وجوده وقدرته « والباطن » حقيقة فلا يحوم العقل حول إدراك كنهه فلا يعرف الله سوى الله والكل عاجز عن إدراك حقيقته الشاملة الكاملة ، لأنه أجلّ من أن يدرك .

«وهو بكل شىء عليم» لايعزب عن علمه شىء من الظاهر والخفى، فإن «عليم» صيغة مبالغة تدل على أنه تعالى تام العلم بكل شىء سواء أكان جليا أم خفيا.

والطباق هنا بين الأول والآخر، والظاهر والباطن ، لم يأت لمجرد تزيين الأسلوب القرآنى؛ بل هو أتى للدلالة على الشمولية التى تتعلق بذات الله تعالى ، فهو سابق على وجود كل شىء وهو لاحق بعد فناء كل شىء، وهو ظاهر لا يخفى على أحد، نجده فى كل ذرة من ذرات العالم الفسيح ، وهو باطن تستعصى الأفهام عن كمال إدراكه لأنه أجل من كل إدراك وأعظم من كل فهم، وأكد ذلك كله بالعبارة التى جاءت فى آخر الآية ، (وهو بكل شىء عليم) لأن من اشتمل على الصفات الكاملة لابد أن يكون عليما بكل شىء خبيرا بكل مخلوق ، وفى ذلك تأكيد لما سبق ذكره من صفات .

وفى ذلك أيضاً نفى التشبيه ، فليس كمثله شىء؛ لأن كل من كان أولا لا يكون آخراً، وكل من كان ظاهرا لا يكون باطنا فأخبر أنه الأول والآخر، والظاهر والباطن، ليعلم أنه لا يشبه شيئا من المخلوقات والمصنوعات .

﴿ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٤) ﴾ خلق الله السماوات والأرض بقدرته وحكمته البالغة ، فى ستة أيام من أيام الدنيا أولها الأحد وآخرها الجمعة، ثم استوى على العرش المحيط بجميع الأجسام، لأن استوى إذا عدى بعلى أفاد معنى الاستيلاء وهو محمول على التمثيل، أى تشبيه الاستواء وهو الجلوس بالاستيلاء على الشىء والاستحواذ به.

وهو عليم بما فى باطن الأرض كالكنوز والموتى والدفائن والبذور، وكما يعلم ما يحويه باطن الأرض يعلم ما تلفظه الأرض كالجواهر من ذهب وفضة ونحاس، وما ينبثق منها من زرع، وما يتفجر من ماء، وما يدب عليها من حيوان ، وما ينزل من السماء ، كالكتب المقدسة والملائكة النورانية والصواعق والأمطار والثلوج، ومايعرج فيها من ملائكة ودعوات صالحات وأعمال طيبات وأبخرة وأدخنة ، وهو أيضاً محيط بكل شىء لا تندعنه حركة (وهو معكم أينما كنتم) وذلك كناية عن إحاطة علمه بجميع الكائنات ، وتصوير لعدم خروجهم عنه أينما توجهوا، والله بصير بكل أعمالكم ، يعطيكم ما تستحقون من ثواب أو عقاب. أليس فى ذلك إيقاظ للغافلين، وتنشيط للمتيقظين وما جبلوا عليه من خشية وحياء من رب العالمين، فطابق بين

السماوات والأرض لما بينهما من التضاد ، كما طابق الولوج فى الأرض والخروج منها، وقابل بين ما يلج فى الأرض وما يخرج منها، وبين ما ينزل من السماء ومايعرج فيها، وهذه المطابقات والمقابلات تفيد الإحاطة الشاملة والإدراك الكامل من الله سبحانه لجميع خلقه فى السماء والأرض وما بينهما وما تحت الثرى، فلا يعزب عنه مثقال ذرة ، ولا تنّد عنه حركة، ولا يفلت من علمه دبة نملة، ثم بعد ذلك هو مع مخلوقاته يكون حيث تكون . ملازم لكل الموجودات ، بلا حيز ولا جهة ولكن بعلمه وقدرته ، وحكمته ورحمته، ويختم الآية بما يؤكد ويتفق مع محتواها فإذا كان معنا حينما كنا، كان بالضرورة بصيرا بأعمالنا خبيرا بأفعالنا وفى ذلك تقرير وتأكيد لهذه الإحاطة الشاملة.

﴿ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٥) ﴾ وأول الآية يفيد الاختصاص ، أى أنه الخالق وحده ليس بمشاركة أحد، كما لم يخلق السماوات والأرض سواه، فهو الخالق دون غيره، وفى آخر الآيه قدم الجار والمجرور على الخبر « والله بما تعملون بصير » لأهمية أعمال المخلوقات والعلم بها، فالله ليس غافلاً عنها ، بل لها أهمية خاصة، وما يكون كذلك لا يمكن يتناسى أو يهمل.

كرر هذه الآية مع مطلع الآية الثانية من السورة لإفادة التأكيد ، ومهد لقوله تعالى « وإلى الله ترجع الأمور » وقدم « إلى الله » إشارة إلى تخصيص أن الأمر يرجع إليه وحده دون مشاركة أحد له استقلالاً أو اشتراكاً.

﴿ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٦) ﴾ الإيلاج : الإدلاج، أى الإدخال أى يدخل الليل فى النهار حتى يصير النهار أطول ما يكون خمس عشرة ساعة والليل أقصر ما يكون حتى يصير تسع ساعات كما فى فصل الصيف ، ويولج النهار فى الليل حتى يصير الليل أطول ما يكون خمس عشرة ساعة والنهار أقصر ما يكون تسع ساعات كما فى فصل الشتاء، والليل والنهار أبدا أربع وعشرون ساعة ، والطول والقصر متشعب مختلف بحسب اختلاف الأقطار والأزمان والفصول الأربعة (وهو عليم) مبالغ فى العلم (بذات الصدور) بمكنوناتها من الأسرار والمعتقدات ، فبعد أن بين إحاطة علمه تعالىٰ بأعمالهم التى يظهرونها بيّن إحاطة علمه تعالى بما يضمرونه فى صدورهم ونيّاتهم فالله سبحانه لا تخفى عليه

خافية فى الأرض ولا فى السماء وفى الآية عكس وتبديل فما قدمه أولا أخره ثانياً والعكس.

﴿آمنوا باللَّه وَرَسُوله وَأَنفقُوا ممَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفينَ فيه فَالَّذينَ آمَنُوا منكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ⑦﴾ الأمر فى « آمنوا بالله » للإغراء فهو يحثهم على الإيمان والإنفاق الذى يحتمل هنا معنى الصدقة والنفقة فى سبيل الله . فالمال مال الله وقد جعلنا خلفاء فيه نتصرف فى الأموال من غير أن نمتلكها حقيقة ، فالله يرغبنا فى الإنفاق وكأن الأموال أموالنا، والأرزاق حق لنا، والواقع أننا مستخلصون فى هذا وذاك، فنحن بمثابة الوكيل ننفق من الأموال فى المصارف التى عينها الله ، ومن يعتبر نفسه وكيلا لا مالكاً هان عليه الإنفاق ، ويكون أهون إنفاقاً إذا رُغب فيه واستحث عليه . (فالذين آمنوا منكم وأنفقوا) حسبما أمروا به من زكاة وجهاد وسائر خيرات ، كان لهم بسبب ذلك أجر كبير وثواب عظيم، قيل : إن هذه الآية نزلت فى سيدنا عثمان رضى الله عنه، لأنه جهز جيش تبوك من ماله الخاص وحكم هذه الآية باق يندب إليه المسلمون بقية الدهر .

﴿وَمَا لَكُمْ لا تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ لِتُؤْمِنُوا بِرَبِّكُمْ وَقَدْ أَخَذَ مِيثَاقَكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ⑧﴾ أى : ما سبب عدم إيمانكم بالله ، وقد أخذ الله ميثاقكم بالإيمان ، والميثاق عقد يؤكد بيمين وعهد – من قبل دعوة الرسول إياكم إلى الإيمان، وذلك بنصب الأدلة والتمكين من النظر.

فالاستفهام فى قوله (ومالكم) يفيد الإنكار ، وقد سلط على النفى (لاتؤمنون بالله) حال كونكم (والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم) ليوبخهم على كفرهم مع تحقق ما يوجب عدمه، فلا عذر لهم فى ترك الإيمان والرسول ينبههم بالحجج الساطعة والآيات النيرة، ولو نبههم بغير حجة ولم يستجيبوا له لما استحقوا الملامة والتوبيخ . واستعمل هنا « إن » (إن كنتم مؤمنين) لأنها تفيد الشك لا القطع ، فإيمانهم غير مقطوع به بل مشكوك فيه، وغير واقع ، فالتعبير هنا بإن لإفادة عدم وقوع الإيمان منهم .

﴿هُوَ الَّذِي يُنَزِّلُ عَلَىٰ عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِّيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَإِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ⑨﴾ أى الله هو الذى ينزل جبريل عليه السلام على عبده محمد عليه

السلام بآيات بينات واضحات ، فيها الأمر والنهى ، والحلال والحرام ، ليخرجكم يا أهل مكة بسبب تلك الآيات من ظلمات الكفر والشرك والشك والجهل والمخالفة إلى نور الإيمان والتوحيد واليقين والعلم والموافقة ، فإن الله بكم لرءوف رحيم حيث يهديكم إلى سعادة الدارين بإرسال الرسول ، وتنزيل الآيات بعد نصب الأدلة العقلية والبراهين القطعية.

وتقديم الضمير الذى يعود على الله جل جلاله ليفيد تخصيص الإنزال به دون غيره، فهو الذى ينزل الآيات البينات على الرسول دون سواه، وعبر بالظلمات والنور بدلاً من الكفر من الإيمان على سبيل المجاز والاستعارة ، أى استعار ، كلمة تستعمل فى معنى معين لمعنى آخر غيره، كما استعار الظلمات للشرك والنور للإيمان، فاجتاز معنى إلى معنى آخر وعلى ذلك سمى مجازا.

ثم أكد خاتمة الآية بأكثر من تأكيد (إن ، وإسمية الجملة ودخول اللام) ليفيد التأكيد على المعنى وينفى إنكارهم بأن الله رءوف بهم، رحيم بأحوالهم ، ولا يزيل الإنكار سوى التأكيد ؛ لأن إنكارهم كان منصباً على الرسالة والرسول ، والله أرسل رسله ونزل آياته مصلحة لعباده ، وتطهير لنفوسهم وقلوبهم، ولكنهم ينكرون ذلك، فخاطبهم الله سبحانه بأسلوب التأكيد المزيل للإنكار، وكلما اشتد الإنكار زاد فى تأكيداته حتى يفى بالمطلوب.

﴿ وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (١٠) ﴾ إن المال مال الله ، وأنت مستخلفون فيه ، فلماذا لا تنفقون هذه الأموال فيما هو قربة إلى الله تعالى فانفقوها فى المصارف التى حددها لكم وقوله (فى سبيل الله) استعارة لمصارف الأموال فى الزكاة بأنواعها التى حددها القرآن ، إذ بعد وفاتكم ومغادرتكم لهذه الدنيا الفانية لا يبقى لكم منها شىء، بل تبقى كلها لله بعد فناء الخلق وإذا كان الأمر كذلك فإنفاقها بحيث تستخلف عوضا يبقى وهو الثواب كان أولى من الإمساك بها، لأنها حينئذ تخرج من أيديكم بلا عوض أو فائدة.

ووصف الله نفسه بالوارث ، من حيث إن الأشياء كلها صائرة إليه، وذكر لفظ الميراث لأن العرب تعرف أن ما يتركه المرء يكون ميراثاً، فخاطبهم بما يعرفون.

وسمى المال مالا، لميل النفس إليه، لقضاء حوائجهم التى جبلوا عليها، فالإنسان ميال بطبعه إلى المال ولا ينفك عنه.

ثم بين الله أن الإنفاق قبل فتح مكة أعظم أجرا من الإنفاق بعد الفتح لأن الدعوة كانت فى حاجة إلى أموالهم، كما أن من يخرج أمواله فى هذه الفترة ، كان لايخشى من ضراوة الكفار، مما يدل على عمق إيمانه تأييد هذا الإيمان بالأموال التى تدعم سير الدعوة ، ومهما كان البذل والعطاء قليلاً فالدعوة فى حاجة إليه أكثر من وقت لاحق حيث تكون الدعوة قد خطت خطوات واسعة، وكثر مؤيدوها وقل معارضوها، لاشك أن الذى ينفق ماله قبل الفتح أعظم أجرا، وأكثر فائدة ممن ينفق بعد الفتح لهذه الاعتبارات وغيرها وفتح مكة هو الذى أزال الهجرة، ولذا يقول الرسول «صلى الله عليه وسلم» « لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية » فالذى أنفق وقاتل العدو تحت لواء الرسول أكثر فضلاً ممن أنفق بعد الفتح وقاتل، فالإنفاق نوعان : انفاق بالمال وإنفاق بالنفس وهو القتال والجهاد، ولاشك أن الجهاد أكثر تضحية من الجهاد بالمال فالمال زائل ويمكن تعويضه، أما إزهاق النفس وضياع الروح فلا شىء يعوضه سوى الثواب الجزيل فى الآخرة (أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا) فهم أرفع منزلة عند الله لأنهم أنفقوا قبل عزة الإسلام وقوة أهله، عند شدة الحاجة إلى النصرة بالنفس والمال، وهؤلاء فعلوا مافعلوا بعد ظهور الدين ودخول الناس فيه أفواجا، وقلة الحاجة إلى الإنفاق والقتال، وعلى الرغم من ذلك فإن الله وعد كلا الفريقين : المنفقين قبل الفتح ، والمنفقين بعد الفتح وعد كليهما بالجنة، وهو المثوبة الحسنى وإن كانت تتفاوت فى درجاتها بين السابقين واللاحقين ، ومن أنفق قبل الفتح وقاتل ومن أنفق بعده وقاتل. والله بكل ما تعملون خبير بظاهره وباطنه فيجازيكم بما تستحقون .

قيل إن هذه الآية نزلت فى أبى بكر الصديق رضى الله عنه وهى حجة ظاهرة على تفضيله وتقديمه، فإنه أول من أسلم ، وأكثر من أنفق قبل الهجرة.

فالاستفهام فى الآية فيه معنى الإنكار والتوبيخ على عدم الإنفاق، وحث لهم على الإنفاق ، إذ أن الأموال ليست لهم فى الحقيقة ، بل هم خلفاء لله فى إنفاقه فلم يبخلون به على الدعوة ، والدعوة فى حاجة ماسّة إليه.

وأضاف ميراث السماوات والأرض إلى الله، لإفادة الشمول، فكل ما عليهما يعود إلى الله ، وليس لأحد من المخلوقات شيء منه على الإطلاق. وطابق بين السماء والأرض، تأكيدا لهذا الشمول والعموم .

وقوله (لا يستوى منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل) فيها إيجاز إذ مفاد الآية، (ومن أنفق من بعد الفتح وقاتل) فحذفه اختصاراً للعلم به، وفضّل درجة السابقين للفتح على اللاحقين بأفعل التفضيل وهى أعظم ونكر « درجة» لتعظيم هذه الدرجة ، (وكلا وعد الله الحسنى) فالحسنى كناية عن الجنة ، وقال (والله بما تعملون خبير) صيغة مبالغة أى كثير الخبرة بأعمالكم لا يفوته منها شىء، وقدم بما تعملون على « خبير » للاهتمام بها، إذ أن أعمالكم موضع اهتمامه تعالى، كما أن أقوالكم كذلك وهذا هو السر فى تقديمها.

﴿ مَن ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١١) ﴾ الإقراض : إعطاء الشىء على وجه يطلب بدله وعوضه، والقرض الحسن : الإعطاء لله وتحرى أكرم المال وأفضل الجهات، وهو الإنفاق فى سبيل الله .

والمعنى : من ذا الذى ينفق ماله فى سبيل الله رجاء أن يعوضه ، فإنه كمن يقرضه فيستحق به مثوبة، وجزاء عظيما، وأجراً كبيرا، أو من ذا الذى يقرض الله مالا حسنا، حلالا طيباً ، فإنه لا يقبل إلا الحلال الطيب.

وأصل القرض « القطع من قرّض التوب بالمقراض ، إذا قطعه به ، ثم سمى ما يقطعه لله من أمواله فيعطيه عينا بشرط رد بدله، كأنه قيل أيقرض الله أحد فيعطيه أجره أضعافا من فضله (وله أجر كريم) حسن مرضىّ فى نفسه حقيق بأن يتنافس فيه المتنافسون وإن لم يضاعف ، فكيف وقد ضوعف أضعافاً كثيرة.

والحاصل : أن الكريم يرد القرض بأحسن ما يكون من الرد، ويحسن أيضاً فى مقابلة الهدية.

والاستفهام فى قوله (من ذا الذى يقرض الله) فيه معنى الحث على القرض، والإغراء لدفع الناس إلى الإنفاق وما تنفقوا من شىء فهو يخلفه، ولن يخلفه بقدر ما أنفق، بل يضاعفه أضعافا كثيرة.

ويقرض استعارة لقطع جزء من الأموال ، والتصدق بها على سبيل العوض، وأكد فعل القرض بالمفعول المطلق زيادة فى التأكيد بأنه قرض، والقرض لابد من رده ودفع العوض بدلاً منه ، ووصفه بأنه حسن « قرضا حسنا » لأنه لابد أن يكون حلالا طيبا خارجا من ذمته عن رضا وليس على سبيل الإكراه أو المقت يخرجه خالصا لوجهه تعالى ، وله فى مقابلة ذلك أجر كريم مبالغ فى كرمه، ووصف الأجر بأنه كريم والكرم ليس من صفات الأجر بل هو من صفات المعطى ، وأسنده للأجر مجازا مبالغة فى الأجر كأنه فى نفسه كريم وأن الأجر، وكل ما يحيط به من إعطاء وإتقان هو فى سبيل الله ورد كيد الأعداء كل ذلك يوصف بالكرم ولذلك كان هذا التعبير بصيغة المبالغة وإسنادها للأجر.

﴿ يَوْمَ تَرَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ يَسْعَىٰ نُورُهُم بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِم بُشْرَاكُمُ الْيَوْمَ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) ﴾ أى : اذكر يا محمد هذا اليوم العظيم ، وهو عظيم لما فيه من شأن عظيم وهو وقت رؤية المؤمنين والمؤمنات يوم القيامة على الصراط، ترى نور إيمانهم وطاعتهم بين أيديهم وبأيمانهم وعن شمائلهم وفى جميع جهاتهم، وتقول لهم الملائكة الذين يتلقونهم، ما تبشرون به اليوم دخول الجنات، أليس ذلك هو الفوز العظيم الذى لا غاية وراءه لكونهم ظفروا بكل ما أرادوا . (يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم ..) تفخيم لليوم الذى تحدث فيه هذه الرؤية الخاصة بالمؤمنين فى حالة كونهم نورهم يسعى بين أيديهم ... وتعظيم للمؤمنين حيث تراهم تحيط بهم هالة من نور وهاج من جميع الجهات.

وبين أيديهم ، كناية عن أمامهم، وخص بين أيديهم بالذكر ، لأنه موضع حاجة الإنسان إلى النور، وخص جهة اليمين تشريفاً، وفى ذلك نيابة عن ذكر جميع الجهات فأسقط ذكر الشمال بعداً عن التطيّر لأن المقام مقام تشريف وإجلال .

والسعى : المشى السريع وهو دون العدو، ويستعمل للجد فى الأمر خيرا كان أو شراً ولكنه أكثر ما يستعمل فى الأمور المحمودة.

وهؤلاء المؤمنون الذين يسعى نورهم بين أيديهم، هم المقربون، لهم نور مطلق يضىء من كل الجهات.

والذين يسعى نورهم بأيمانهم هم أصحاب اليمين ، فنورهم مقيد بأيمانهم ، وأما أصحاب الشمال ، فلا نور لهم أصلاً ، لأنهم الكفرة الفجرة ولذا طوى ذكر الشمال . كما أن النور لا يسعى وإنما أسند السعى إليه على سبيل المجاز (بشراكم اليوم) إجابة عن سؤال ماذا تقول الملائكة ؟ تقول لهم « بشراكم ».

ونكر « جنات » بأنها لتعظيم أمرها لما فيها من نعيم ، ورفاهية وراحة، ووصف جنات « بأنها تجرى من تحتها الأنهار » والماء أعز شىء عند العرب لشدة افتقادهم إليه فى صحرائهم الشاسعة الملتهبة.

(هو الفوز) وأكد القرآن فوزهم بهذا النعيم بإضمار المبتدأ وتعريف الخبر، وأنهم ظفروا بكل رغباتهم، وحققوا كل ما يريدون .

﴿ يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِن قِبَلِهِ الْعَذَابُ (١٣) ﴾ يقول المنافقون والمنافقات للمؤمنين الذين أخلصوا الإيمان، انتظرونا لأن المؤمنين يسرعون إلى الجنة كالبروق الخاطفة على ركاب تزف بهم، والمنافقون مشاة، أو انظروا إلينا فإنهم إذا نظروا إليهم استقبلوهم بوجوههم فيستضيئون بالنور الذى بين أيديهم. والأول أصح ، لأن النظر بمعنى الإبصار لا يتعدى بنفسه، وإنما يتعدى بإلى ، نقول نظرت إلى الشىء ، ولا تقول نظرته.

نقتبس من نوركم ونستضىء منه ونمشى فيه معكم. والقبس : الشعلة تؤخذ من معظم النار، أى نأخذ من نوركم قبساً سراجاً وهاجا، فالله يعطى المؤمنين نورا على قدر أعمالهم يمشون به على الصراط.

ثم نرى القرآن يذكر أن المؤمنين يتهكمون على المنافقين بقولهم :

(ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا) أى عودوا إلى الدنيا فالتمسوا منها النور الذى تطلبونه الآن ، واعملوا صالحا حتى تظفروا بهذا النور الذى نهتدى به يوم القيامة، يقولون ذلك تهكما وسخرية بهم، لأنهم يعلمون أن العودة إلى الدنيا مستحيل لا محالة. ولكنهم يوبخونهم ويتلعبون بهم أو ارجعوا خائبين خاسئين، وتنحوا عنا فالتمسوا نورا آخر، وقد علموا أن لا نور وراءهم ، وإنما قالوه تخييبا لهم وتيئيسا .

وضرب بين الفريقين : بين فريق المؤمنين وفريق المنافقين بحائط بين شق الجنة وشق النار، فسور المدينة: حائطها المشتمل عليها، ولذلك الحائط أو السور باب يدخل فيه المؤمنون ، يدخلون إلى الجنة وما فيها من رحمة، ويظل المنافقون من الجهة الأخرى يصطلون بعذاب النار ، لأنهم لم يتمكنوا من اقتحام باب الجنة وولوجها.

وقد وضع فى مقابل المؤمنين والمؤمنات فى الآيه السابقة، المنافقون والمنافقات فى هذه الآية، فالمؤمن الحق لا يكون منافقا، لأن النفاق خبث وكذب، والمؤمن لا يكون خبيثا ولا كاذبا.

وعبر بكلمة نقتبس من نوركم بدلاً من نستضىء، لأن الاقتباس أخذ القليل من الكثير ، أخذ شعلة صغيرة من نار عظيمة، أى نأخذ شيئاً قليلاً من نوركم العظيم، فالمؤمنون إيمانهم ساطع يضىء كل ما حوله ، والمنافقون لا نور لهم إطلاقاً، فيتمنون الحصول على قدر يسير من هذه الإضاءة ولكن هيهات. فكلمة نقتبس عبرت عن هذه المعانى أدق تعبير، لا توفى به كلمة أخرى فى هذا المقام.

والأمر فى (ارجعوا وراءكم) خرج عن مدلوله الحقيقى إلى مدلول آخر وهو التهكم والسخرية.

وكلمة وراءكم فيها معنى العموم الشامل لكل وراء ، تشمل الرجوع إلى الموقف، أو الرجوع إلى الدنيا، أو الرجوع إلى الله، وطلب العفو والإثابة، فهى شاملة لكل هذه المعانى.

وبين باطنه فيه الرحمة وبين ظاهره من قبله العذاب ، مقابلة شيئين بشيئين، الباطن والظاهر والرحمة والعذاب.

والرحمة حالّة فى الجنة، ولذلك جاز التعبير بها على وجه أبلغ من قولهم باطنه فيه الجنة.

﴿ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُم بِاللَّهِ الْغَرُورُ (١٤) ﴾ أى ينادى المنافقون المؤمنين من وراء السور مستعطفين منهم ، راجين أن يوالوهم ويأخذوا بأيديهم، ليكونوا معهم فى

الجنة كما كانوا معهم فى الدنيا، ألم نكن معكم « فى الدنيا ؟ أى موافقين لكم فى الأمور الظاهرة كالصلاة والصوم والزواج والميراث وغير ذلك، قالوا بلى كنتم معنا بحسب الظاهر ولكنكم فتنتم أنفسكم » وأهلكتموها بأساليبكم الملتوية من النفاق والميل إلى تحقيق الرغبات الآثمة، وتربصتم بالمؤمنين الدوائر، وتمنيتم الموت لصاحب الرسالة حتى تستريحوا منه، وهو وصف قبيح ، فانتظار الموت لمن يحمل وسائل الخير، ووسائط الحق جرم عظيم، ومطلب قبيح، إذ من شأنه أن يرجى له طول الحياة، ليستفاد منه ويفتتم بمجالسته.

(وارتبتم) وشككتم فى أمر الدين و (غرتكم الأمانى) الفارغة من انتكاس أمر الإسلام وأخذتم بخدع الشيطان وأباطيل الدنيا، حتى جاءكم الموت، وغركم الشيطان بكرم الله ، بأنه عفو كريم لا يعذبكم والغرور صيغة مبالغة، كما تقول فلان أكول : كثير الأكل ، وغرور لأنه يغر بنى آدم ويخدعهم كثيرا، وكل ما يغرالإنسان من مال وجاه وشهوة فهو غرور لأنه يغر بنى آدم ويخدعهم كثيرا.

وقد فسر الغرور بالشيطان، إذ هو أخبث الفارّين بالدنيا.

والاستفهام فى قوله (ألم نكن معكم) للاستعطاف وتليين قلوب المؤمنين على المنافقين .

وفى عطف الأفعال بعضها وراء بعض ، حتى بلغت أربعة أفعال، تبين مدى تلاحقها وسرعتها فى أخذ المنافقين بها، والعمل بمقتضاها ، وهى (فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأمانى) فلم تكن لهم أمنية واحدة بل عدة أمان وهى كثيرة لا تعد وكلها يغضب الله ، ويعوق الرسالة (حتى جاء أمر الله) كناية عن الموت ، ثم ختم الآية بما يتفق مع غرور الأمانى لهم ، بذكر سبب الخداع وهو الشيطان الذى يغّر بنى آدم ، وينبغى علينا ألا ننخدع به ، ونأخذ بأمانيه الزائفة الباطلة.

﴿ فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاكُمْ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٥) ﴾ أى : لا يؤخذ منكم أيها المنافقون فداء تدفعون به العذاب عن أنفسكم، لا يؤخذ منكم ولا من غيركم من الكفار.

والفداء : حفظ الإنسان من النائبة بما يبذله عنه من مال أو نفس، أى لايؤخذ منكم دية ولا نفس أخرى مكان أنفسكم .

وفيه دلالة على أن الناس أقسام ثلاثة :

مؤمن ظاهراً وباطناً وهو المخلص الحقّ فى إيمانه .

ومؤمن ظاهراً لا باطناً ، وهو المنافق.

وكافر ظاهراً وباطناً وهو المشرك غير الموحد.

والقسمان الأخيران : المنافق والكافر مرجعهم النار ، أى النار مأواهم وقدم الخبر هنا لإفادة التخصيص، أى لا ترجعون إلى غيرها أبدا، فقال (مأواكم النار) فهى مولاكم تتصرف فى شئونكم كما يتصرف المولى فى عبيده لما أسلفتم من المعاصي،، واستعار للنار كلمة المولى ، لشدة الشبه بينهما ، فكل منهما متصرف فيما تحت يده، وبئس المصير والمرجع النار، نار القطيعة والهجران المتسلطة عليكم ، بالإضافة إلى مسها المؤلم الموجع.

وبنى الفعل للمجهول (لا يؤخذ منكم فدية) أى لا يقبلها منكم أحد ملك أو إنس أو جن، أو شىء من مخلوقاته تعالى . ونكر « فدية » لتعظيمها ، أى مهما كانت هذه الفدية عظيمة من الأموال أو من الأنفس وقدم (مأواكم) على النار ، لإفادة التخصيص كما سبق أن قلنا أى ليس لكم مأوى سوى النار التى تلوذون بها ، وهى المولى المذموم ، وبئس المصير هذه النار لكم.

﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ وَلا يَكُونُوا كَالَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ الأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (١٦) ﴾ (ألم يأن) من أنى الأمر إذا جاء أناه ، أى وقته وحان حينه ، والخشوع : الضراعة والذل، أى ألم يحن الوقت لأن تخشع قلوبهم لذكره تعالى ، وتطمئن به ، ويسارعوا إلى طاعته بالامتثال لأوامره، والانتهاء عما نهوا عنه من غير توان ولا فتور، فترق حينئذ قلوبهم بذكر الله فإن ذكر الله ، سبب لخشوع القلب وطمأنينته (وما نزل من الحق) كناية عن القرآن والقرآن فى ذاته ذكر ، فكأنه عطف الشىء على نفسه، وجوز ذلك اختلاف الألفاظ، وإن كان المعنى واحدا.

روى فى سبب نزول الآية : أن المؤمنين كانوا فقراء مجدبين بمكة، فلما هاجروا، أصابوا الرزق والنعمة، ففتروا عما كانوا عليه من الخشوع فنزلت.

وقد نهت الآية المؤمنين عن مماثلة أهل الكتاب فيما حكى القرآن عنهم ، بأن الأجل طال بهم ، وامتد بينهم وبين أنبيائهم فغلبهم الجفاء، وسيطرت عليهم القسوة، وزالت عنهم الروعة التى كانت تأتيهم من التوراة والإنجيل، حين كانوا يتلونهما أو يسمعونهما، فاشتدت قلوبهم قسوة وصارت كالحجارة أو أشد قسوة، والقسوة : غلظة فى القلب وجفاء تحصل من اتباع الشهوة التى تتنافى مع الصفاء والرقة، فكثير من هؤلاء، خارجون عن حدود دينهم، رافضون لما فى كتابهم ، لفرط جفائهم وقسوتهم.

وفى قوله (فقست قلوبهم) تعبير مجازى ، لأن القلوب لا تتصف بالقسوة وإنما هو تمثيل لها بالحجارة الصلبة القاسية التى لا تلين ولا ترق.

﴿ اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يُحْيِي الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٧) ﴾وبعد ذكر القلوب القاسية مثل لنا القرآن أن الله قادر على أن يبدل هذه القسوة إلى لين ، فجاء التمثيل فى أعقاب هذا المعنى، فالله يحيى القلوب القاسية بالذكر والتلاوة كما يحيى الأرض الميتة بالغيث والأمطار، فالله يحذرهم من القسوة ويرغبهم فى اللين، فإحياء الأرض بعد موتها لا تستعصى على الله الخالق لكل شىء، المسيطر على كل شىء فى ملكوته لا يعجزه صمود شىء أمام قدرته.

فالله يبين لنا آياته وشواهده ، كى ندرك ما فيها، ونعمل بموجبها ، فنفوز بسعادة الدارين لعلنا نتعقل هذا ونفهمه.

وإحياء الأرض وموتها ، صورة لبث الحياة والموت فى الجماد الذى لا يطرأ عليه موت ولا حياة ، وإنما أراد بالإحياء والإماتة، إحياءها بالنبات والخضرة بعد موتها بالجفاف واليبس، على سبيل الاستعارة والمجاز.

﴿ إِنَّ الْمُصَّدِّقِينَ وَالْمُصَّدِّقَاتِ وَأَقْرَضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا يُضَاعَفُ لَهُمْ وَلَهُمْ أَجْرٌ كَرِيمٌ (١٨) ﴾ الإقراض الحسن ، عبارة عن التصدق من الطيب عن طيب نفس ، وخلوص نّية على المستحق للصدقة.

أى : أن الناس الذين تصدقوا وتصدقن، وأقرضوا الله قرضا حسنا، يضاعف لهم الأجر والثواب يوم القيامة ، فلهم أجر كريم من الله الكريم، لأنهم كانوا كرماء فى الدنيا، ومن يكن كريماً لابد أن يجازيه الكريم من كرمه. والعبرة هى الصدقة المقترنة بالإخلاص.

وليس هناك تكرار بين المصدقين والمقرضين القرض الحسن، لأن أصحاب القرض الحسن، تصدقهم مقيد بأنه عن طيب نفس وسماحة، أما المصدقون ، فتصدقهم مطلق ليس مقيداً بكل هذا الإخلاص. وفى الحديث أن الرسول «صلى الله عليه وسلم » وعظ النساء وذكرهن فقال : تصدقن فإن أكثركن حطب جهنم « قالت امرأة : لِمَ يا رسول الله ؟ فقال : لأنّكنّ تكثرن الشكاية وتكفرن العشير» أى الزوج ، فجعلن يتصدقن من حليّهن، ويلقين فى ثوب بلال، حتى اجتمع فيه شىء كثير ، قسمه الرسول «صلى الله عليه وسلم» على فقراء المسلمين.

وعطف الجملة الفعلية (وأقرضوا) على الجملة الإسمية (إن المصدقين) لأنها فى معنى الفعل ، أى : إن الذين تصدقوا وتصدقن وأقرضوا الله .

وسميت الصدقة قرضا، لأن القرض لن يضيع ، وإنما يسترد من الله، وأكد على أنه قرض بالتعبير بالمصدر (قرضا) وعبر بالفعل المضارع (يضاعف) لأن هذا الجزاء المضاعف متجدد دائماً ولا ينقطع أبدا، ثم نكر أجر لإفادة التكثير والتعظيم ، كما وصف الأجر بأنه كريم مبالغ فى التكريم من الله وفى الأجر.

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُوْلَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ وَالشُّهَدَاءُ عِندَ رَبِّهِمْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَنُورُهُمْ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١٩) ﴾ أى إن الذين آمنوا بالله ورسله كافة هم بمنزلة الصديقين والشهداء المشهورين بعلو المرتبة ورفعة المحل، وهم الذين سبقوا إلى التصديق واستشهدوا فى سبيل الله فالذين آمنوا أجر مثل أجر الصديقين والشهداء ونورهم فهم معروفون بغاية الكمال، وعزّة المنال ، وقد حذفت أداة التشبيه هنا كما حذفت فى (هم الصديقون والشهداء) تنبيها على قوة المماثلة وبلوغها حد الاتحاد، وكأن أجرهم هو نفس الأجر الذى يتلقاه الصديقون والشهداء والأقل من ذلك.

ثم ذكر ما يقابل الإيمان والمؤمنين ، فتحدث عن الكفر والكفار وذكر

مصيرهم (والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب الجحيم) فوصفهم بهذه الصفات القبيحة من الكفر والتكذيب بالآيات وبالرسل، فهم فى الجحيم أبدا يكتوون بنارها، مصاحبين لها لا يفارقونها، بل يلازمونها كما يلازم الرجل صاحبه، ومن ثم سمى بالصاحب ، فالكفر هو الكفر بالله ، وهو فى مقابلة الإيمان بالله، وتكذيب الآيات تكذيب بالرسل ، لأنهم أصحاب الآيات، فوصفهم بأخس الأوصاف القبيحة من الكفر والتكذيب.

ونلاحظ فى الآية تكرار الازدواج المتمثل فى العطف بين كل اثنين، فعطف أولاً كلمتى : بالله ورسله: والصلة القوية معقودة بين الله ورسوله ، وعطف ثانياً كلمتى : الصديقين والشهداء، لأن الشهداء أخص من الصديقين ، فقد لا يكون الصديق شهيداً، ثم عطف (أجرهم ونورهم) والنور جزء من الأجر، ثم عطف أخيرا : (الذين كفروا وكذبوا) ولا شك أن التكذيب سمة من سمات الكفر، فكل لفظة جاءت مقترنة بأختها مما جعل للآية وقعاً عظيماً وتأثيراً كبيراً ؛ فما أرقى إعجاز القرآن !.

﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ (٢٠) ﴾ اعلموا أيها الناس أن أمور الدنيا « لعب » وعمل باطل تتعبون فيه أنفسكم بلا فائدة « ولهو » تشغلون به أنفسكم عما يهمكم من أعمال الآخرة « وزينة » من الملابس والمراكب والمنازل الحسنة تزدادون بها « وتفاخر بينكم » بالأنساب والأحساب تتباهون بها كالمال والجاه، إذ يعبر عن كل نفيس بالفاخر وتكاثر فى الأموال والأولاد بالعّدل والعدد.

وقيل : لعب كلعب الصبيان ، وزينة كزينة النسوان، وتفاخر كتفاخر الأقران، وتكاثر كتكاثر الدهّقان».

قال علي لعمار رضى الله عنهما :

لا تحزن على الدنيا فإن الدنيا ستة أشياء :

مطعوم ، ومشروب ، وملبوس ، ومشموم ، ومركوب ، ومنكوح.

فأكبر طعامها العسل، وهو ريقة ذبابة.

وأكبر شرابها الماء ، ويستوى فيه جميع الحيوان.

وأكبر الملبوس الديباج ، وهو نسج دودة.

وأكبر المركوب الفرس، وعليها يقتل الرجال.

وأكبر المنكوح النساء ، وهو مبال فى مبال.

وفى الحديث « مالى وللدنيا » إنما مثلى ومثل الدنيا كمثل راكب قام فى ظل شجرة فى يوم صائف ، ثم راح وتركها ».

فالدنيا تشبه الغيث ، والغيث مطر يحتاج إليه ، يغيث الناس من الجدب عند قلة المياه، فهو مخصوص بالمطر النافع، بخلاف المطر فهو عام فى النافع والضار.

وهذا الغيث يعجب الزارع لنمو نباته ، تقول للزارع كافر، لأنه يكفر بذوره أى يسترها بالتراب، وسمى الكافر كافرا لأنه يغطى الحق بالباطل، والمراد هنا الكافرون؛ لأنهم أشد إعجاباً بزينة الحياة الدنيا، ولكن هذا الزرع لا يبقى على حاله من الخضرة والرواء والنضارة ، ولكنه يجف ويمحى بآفة أرضية أو سماوية، وتراه مصفراً بعد ما رأيته ناضرا مونقاً، وليست الصفرة آتية مع الجفاف مباشرة، وإنما تأتى بعد الجفاف ، ولذا عبر باسم المفعول : مصفراً ولم يعبر بالفعل فلم يقل : فيصفر.

« ثم يكون حطاما» مهشما متكسرا، وفى ذلك تحقير أىّ تحقير لشئون الدنيا وأمورها ، لأننا لا نتوصل بها إلى الفوز الآجل فى الآخرة فمثل القرآن حال الدنيا فى سرعة تقضيها وزوالها وقلة نفعها بحال النبات الذى يبدو رائقاً للعين بنضرته ورونقة، وفجأة يجف ويتهشم ويصبح أثرا بعد عين هذه هى حال الدنيا وشأنها، فعلينا أن نغتنم منها ما يصلح به آخرتنا ولا ننظر إليها كمجرد لهو وزينة، بل عمل من أجل الثواب فى الآخرة وحسن المثوبة.

ففى الآخرة عذاب شديد لمن يقبل عليها ولايرى غيرها، وفيها أيضا مغفرة عظيمة من الله ورضوان كثير لمن أعرض عنها وقصد بها الآخرة وكل ماذكرته الآية

ينتهى بنا لامحالة إلى خاتمتها حيث قال: (وماالحياة الدنيا إلا متاع الغرور)، كمتاع فان لايبقى ولايخلد، وإنما يسرع إليه الفناء وتمتد إليه معاول الهدم. ففى بداية الآية مايدل على نهايتها، وهو مايسمى بالإرصاد عند علماء البلاغة.

(اعلموا أنما الحياة الدنيا)، الدنيا هنا مجاز عن أمور الدنيا إذ هى لازمة لها. ووصفها بالدنيا لأنها متدنّية حقيرة لا تغنى عن الجزاء الأوفى شيئاً، لاشتمالها على وسائل العبث بكل مقوماته ، من اللعب واللهو والزينة، والفخر والمباهاة بالأموال والجاه.

ثم هذا التشبيه الحسى التمثيلى المركب بأن شأن الدنيا شأن الغيث الذى يسقى الأرض البور الجافة ، فتنبت وتزهو فنطمع فى خضرتها وثمارها، ولكنها تخلف ظننا، فتجف بآفة من الآفات، ويصفر نباتها وييبس ورقا، ثم يتهشم ويتحطم ولا يبقى منه شىء.

وقدم ذكر العذاب عن المغفرة (فى الآخرة عذاب شديد ومغفرة من الله) لأن العذاب من نتائج الانهماك فى بريق الدنيا ومحاسنها الزائفة.

ونكر « مغفرة » للتعظيم أى مغفرة عظيمة ، ونكر (ورضوان) ليفيد التكثير، أى رضوان كثير لا يقدر قدره .

وهناك فى نهاية الآية تشبيه آخر حيث شبه الحياة الدنيا بأنها كمتاع فان لايستمر ولا يبقى قصر موصوف على صفة حيث قصر الحياة على المتاع الذى يغر الإنسان ببريقه لا بمحتواه ، وأداة القصر هنا النفى والاستثناء، أما أول الآية اعلموا انما الحياة الدنيا لعب ولهو.. فأداته إنما.

وأخيراً فيها إرصاد، وهو دلالة بداية الآية على خاتمتها ، فبعد أن ذكر أن الحياة ما هى إلا لهو ولعب وزينة إلى آخره قال ،. ما هى إلا متاع الغرور ، فكانت نهايتها مطابقة لبدايتها.

﴿ سَابِقُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ذَٰلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢١) ﴾ أى : سارعوا مسارعة السابقين لأقرانهم فى الميدان إلى مغفرة عظيمة، بأن تفعلوا أسبابها

وموجباتها كالاستغفار وسائر الأعمال الصالحة، وبالدعاء لله أن يوفقكم للأعمال التى تغفر لصاحبها لا محالة، إنكم إذا فعلتم ذلك فستكون لكم جنة عرضها كعرض سبع سماوات وسبع أرضين لو وصل بعضها ببعض - وإذا كان عرضها كذلك فما ظنك بطولها ، فإن طول كل شىء أكثر من عرضه، وهذا تشبيه للعباد بما يعقلون ، ويقع فى نفوسهم .

وهذه الجنة هيئت للذين آمنوا بالله ورسله وكتبه، والعمل بمقتضاها، هذا الوعد من المغفرة والجنة فضل من الله يؤتيه تفضلا وإحسانا لمن يشاء من غير إيجاب ولا إلزام ، فالله هو صاحب الفضل الذى لا غاية وراءه.

(سابقوا) فيها معنى المفاعلة وهو التنافس على السباق فى المغفرة ودخول الجنة ولذا كانت أبلغ من الفعل اسبقوا.

والتنكير فى المغفرة للتعظيم أى مغفرة عظيمة.

ومغفرة مجاز مرسل ، لأن المراد الأسباب أى أسباب المغفرة وموجباتها فعبر بالمسبب وأراد السبب.

وهى مغفرة تطلب من الله لا من غيره منفردا ولا مشتركاً، ونكر « جنة » للتعظيم والتكثير، حيث إنها عدة جنات ، وكل جنة توصف بالعظمة، وليست جنة واحدة، ولا جنة صغيرة، والتشبيه هنا متعدد، لأنه شبهها بعرض السماء وعرض الأرض، وفى ذلك كناية عن اتساع الجنة الموعودة اتساعاً لا غاية وراءه، والله يعطى هذه الجنة متفضلا، والفضل فوق العدل لما فيه من الزيادة ، وهى فوق ما يستحق المرء.

(والله ذو الفضل العظيم) تذييل جرى مجرى المثل أتى به لتوكيد الكلام السابق الذى يدل على فضل الله سبحانه .

﴿ مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) ﴾ المصيبة من إصابة السهم إذا وصل إلى المرمى بالصواب، ثم اختص بالنائبة، ونبرأها : نخلقها والبارئ : الخالق.

أى ما أصابكم من نوائب فى الأرض كجدب وآفة فى الزروع والثمار، ولا فى

أنفسكم كمرض وموت ولد وخوف عدو، وجوع إلا مكتوبة مثبتة فى علم الله من قبل أن تخلق الأرض أو الأنفس أو المصائب، فإن إثباتها فى علم الله مع كثرتها سهل يسير وإن كان عسيرا على العباد.

وفى الآية قصران : الأول : ما أصاب من مصيبة .. إلا فى كتاب أداته النفى والاستثناء . وليس فى شىء آخر غير الكتاب.

والثانى إن ذلك على الله يسير فقدم (على الله) مع أن موضعها التأخير أى أن ذلك يسير على الله صعباً على غير الله جل جلاله.

﴿ لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ (٢٣) ﴾
(لكيلا تأسوا) من الأسى وهو الحزن أثبتنا لكم وأخبرناكم ، وكتبنا لكم فى كتاب كل ما يمكن أن يحدث لكم، كى لا يحصل لكم الحزن والألم على ما فاتكم من نعم الدنيا، كالمال والخصب والصحة والعافية، ولا تفرحوا بما أعطاكم الله منها، فكل ما منحتم من النعمة ، وما أصابكم من مصيبة مقدر مكتوب، ومن يدرك ذلك لن يعظم جزعه على مافات ولافرحه بما هو آت، إذ يجوز أن يقدر ذهابه عن قريب.

والمراد بالآية نفى الأسى المانع عن التسليم لأمر الله ، والفرح الموجب للبطر والاختيال، وقد أراد القرآن التأكد على هذا المعنى فى دفع الاختيال عن البشر فقال (والله لا يحب كل مختال فخور) لأن من يفرح بحظه فى الدنيا ، عظم فى نفسه، واختال وافتخر بها لا محالة والمختال : هو المتكبر المعجب، من الخيلاء وهو التكبر، من تخيل فضيلة تتراءى للإنسان من نفسه، ومنها أخذ لفظ الخيل، لما قيل إنه لا يركب أحد فرسا إلا وجد فى نفسه نخوة.

وبين الأسى على ما فات والفرح بماهو آت ، مقابلة شيئين بشيئين مما يساعد على الاتزان الموسيقى الذى يلفت الذهن ويشمل الإحساس بدوافع المعنى الذى أتت به الآيه ثم عقب الآية بما هو مفهوم منها، وهو النهى عن الاختيار والافتخار ، فقال على سبيل التأكيد (والله لا يحب كل مختار فخور)، ونفى العموم هنا يوحى بأن الله يكره الاختيال والفخر لما نحصل عليه من زينة الحياة الدنيا، وإن كان يفيد فى نفس الوقت أن الله لا يكره الاختيال والفخر فى بعض المواقف التى يدعو إليها نشر الدعوة الإسلامية كالحرب، والاستهانة بالعدوّ حتى يدخل الروع فى قلبه،

فالاختيال عمّن أعرض عن الدعوة الإسلامية والترفع عمّن افتخر بشركه، وتعالى بجبروته ، كل ذلك يشعر بعزة الإسلام والمسلمين، وهذا هو الاختيال والفخر المطلوب المحبوب ، وفخور صيغة مبالغة تفيد شدة الفخر والأخذ به حتى يصير عادة وإلفًا للمرء.

﴿ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَمَن يَتَوَلَّ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٢٤) ﴾
والمختال بالمال عادة يضنّ بماله ، ويأمر غيره بالبخل وعدم الإنفاق، وهذا غاية فى الذم ، فالذى يمسك أمواله ولا يخرج منها حق الله ، جاحد لفضل الله عليه وعلى ما منحه من نعم ، والبخيل هو الذى يكثر منه البخل، والكريم هو الذى يكثر منه الكرم ، ومن يعرض عن الإنفاق فإن الله غنى عنه وعن إنفاقه ، وهو المحمود لايضره الإعراض عن شكره ولا ينفعه التقرب إليه بنعمه، والآية توحى بالتهديد لمن يبخل ويمسك عن الإنفاق ولا يخرج حق الله ، فمن يعرض عن الإقبال على الله أو يدبر عن الإنفاق ، فإن الله هو الغنى وهو المحمود لا ينفعه إقبال ولا يضره إدبار، إذ هو النافع وهو الضار وحده، وضمير الفصل فى قوله : فإن الله هو الغنى .. يفيد التخصيص أى أن الله هو الغنى وهو المحمود لا غيره ، استقلالاً أو اشتراكا، والآية غاية فى الإيجاز لما تتضمنه من معان شتى لو فصلت لملأت صفحات دون أن يكون هذا الإيجاز محددا بكلمة أو كلمات محذوفة، وإنما توحى ألفاظ الآية بأنها تحمل فى طياتها معانى عديدة وهو ما سمى بإيجاز القصر.

﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ (٢٥) ﴾ (لقد أرسلنا رسلنا) أى الملائكة إلى الأنبياء ، أو الأنبياء إلى الأمم، أرسلناهم بالمعجزات يخلقها الله على يدى أنبيائه، كإحياء الموتى وقلب العصا حية، واليد البيضاء، وشق القمر من غير نزول الملك بها ، ولكن الله يخبر أنبياءه بواسطة الملائكة أن معجزة القرآن نزل بها جبريل الأمين ، ولكن المعجزة بصفة عامة لم يثبت أنها نزلت على كل رسول بواسطة الملائكة.

وأنزلنا معهم الكتاب، الكتب السماوية جميعها ، لتبين الحق وتميز العمل.

وقوله (وأنزلنا معهم الكتاب) ولم يقل وأنزلنا إليهم الكتاب، مما يدل على أن

المراد بقوله « لقد أرسلنا رسلنا بالبينات » أن المراد بالرسل الملائكة لا الأنبياء، لأن الكتب تنزل معهم ، أما الأنبياء فالكتب تنزل إليهم، فالأنبياء لم ينزلوا حتى ينزل معهم الكتاب.

(و الميزان ليقوم الناس بالقسط) ، ليتعاملوا بالعدل فلا يظلم أحد أحدا والمقصود بالميزان وإنزاله ، إنزال أسبابه والأمر بإعداده ، وإلا فالميزان من صنع البشر، وليس منزلاً من السماء ، فالميزان هو ميزان معرفة الله وملائكته وكتبه ورسله، نتعلم منه كيفية الوزن من الأنبياء ، كما تعلم الأنبياء من الملائكة، فالله هو المعلم الأول ، والثانى : جبريل والثالث : الرسول ، والخلق كلهم يتلقى تعليمه من الرسول ، إذ لا طريق فى المعرفة سواه .

(وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد) لأنه أداة القتال ، ويستعمل فى صناعة سلاح الحرب ، وآلات الحرب والقتال إنما تتخذ منه، وكما أن الحديد سلاح للحرب، فهو سلاح للحياة يستعمله الناس فى معيشتهم وحاجتهم ، كالسكين والفأس والإبرة، وما من صنعة إلا والحديد داخل فيها ، أو آلة العمل بها.

قيل : نزل آدم عليه السلام من الجنة ومعه خمسة أشياء من حديد:

الأول : السندان ، آله معروفة عند الحداد.

الثانى : الكلبتان : وهو ما يأخذ به الحداد الحديد المحمى.

الثالث : الميقعة ، خشبة القصار يدق عليها ، أى « الأورقة ».

الرابع : المطرقة ، آلة الطرق والضرب.

الخامس : الإبرة، وهى مسلة من حديد ، يحرك بها الحداد النار.

فالناس تستعمل الحديد ، وما يؤخذ منه كالسيوف والرماح وسائر السلاح فى مجاهدة الأعداء، ليعلم أن استعمال هذه الأشياء فى نصرة الله وإن كانوا لم يبصروه فالحمد والإنابة لمن يطيع بالغيب من غير معاينة للمطاع، فالله قوى يهلك من يريد إهلاكه ، فالقوة فى حق الله بمعنى القدرة ، وفى حق البشر عبارة عن شدة البنية وصلابتها التى هى ضد الضعف.

والله عزيز لا يفتقر إلى نصرة غيره من المخلوقات، وإنما أمرنا بالجهاد

لنستوجب ثواب الامتثال له والعزة : الغلبة على كل شىء فالله سبحانه لا يلحقه ضعف، ولا يمسه نصب ولا تعب، ولا يدركه قصور ولا عجز.

ولا يظن ظان أن هذه الآية قد اشتملت على شيئين غير متوافقين :

إرسال الملائكة ، وإنزال الحديد، بل هما غاية فى التلاؤم والتوافق فإرسال الملائكة بالمعجزات وبالكتب المقدسة، وبالعدل المنافى للظلم كل ذلك كالمقدمة لما يحدث للمطيعين لها المصدقين بها من مجاهدة ورد عن هذه الدعوة الدينية التى تضمنتها الكتب والمعجزات والعدل فكان - لا محالة - من التحصن بآلات الجهاد والقتال المتمثلة فى الحديد والسلاح وما يشتق منه فالحديد فيه جانب للقتال وفيه جانب للحياة ، فكما أن القتال يستعمل فيه أنواع الحديد وآلاته، فكذلك الحياة ، لا تستغنى عن فوائده وآلاته ومن هنا كان ذكر الحديد متفقا تماما مع إرسال الملائكة بالكتب والعدل والمعجزات.

وفى قوله تعالى فى آخر الآية (إن الله قوى عزيز) احتراس حتى لا يتهم أحد أن نصرة الله ونصرة رسله عن ضعف فيه أو رسله ، فالله قوى عزيز لايعدله أحد فى القوة أو العزة ، ولذا أكد الكلام بإن كما استعمل صيغة المبالغة فى عزيز أى : الكامل فى عزته التى لا يدخلها ريب أو نقص.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٦) ﴾ « ولقد أرسلنا اللام هنا للقسم، وقد تفيد التوكيد والتحقيق لدخولها على الفعل الماضي، أى وبالله قد بعثنا نوحا إلى قومه وهم بنو قابيل ، وإبراهيم إلى قومه أيضاً وهم نمرود ومن تبعه، وجعلنا فى نسلهما الأنبياء وأوصينا إليهم الكتب مثل هود وصالح وموسى وهارون وداود وغيرهم ، فلا يوجد نبى ولا كتاب إلا وهو متصل بهما بأقوى الأسباب وأشد الصلات ، ومن هذه الذرية صنفان : صنف مؤمن اهتدى بالحق وعمل الخير، وصنف فاسق خرج عن الحق، وعدل عن الطريق المستقيم ووقع فى الضلال لا محالة.

وذكر رسالة نوح وإبراهيم بصفة خاصة تشريفاً لهما بالذكر ، لأنهما من أول الرسل، وأبوان للأنبياء عليهم السلام ، فالبشر كلهم من ولد نوح، والعرب والعبرانيون كلهم من ولد إبراهيم.

وعرف النبوة والكتاب بأل « فقال » النبوة والكتاب » أى الأنبياء المعرفون المعهودون كلهم وقد جاء ذكرهم فى القرآن الكريم « وأل » فى الكتاب تفيد الشمول والعموم ، أى الكتب السماوية كلها من توراة وإنجيل وقرآن وغيرها . وعبر بكلمة الذرية دون مرادفها وهى : النسل ، لأن الذرية من الذر ، وهى النمل ، فكلمة الذرية تفيد الكثرة الهائلة كما توحى بها لفظة النمل.

والتنكير فى « مهتد » لتفيد القلة والضآلة فى العدد فالذين اهتدوا قليل بالقياس إلى من لم يهتد ، وتنكير « كثير » تفيد الكثرة الهائلة من الفسقة وقد جاءت هذه الكثرة من التنكير أولا، ومن بنية اللفظة ثانيا وهى كثير.

﴿ ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلاَّ ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ (٢٧) ﴾ (ثم قفينا على آثارهم برسلنا) أى اتبعنا من بعدهم واحدا بعد واحد من الرسل، وجعل الضمير للجمع ، لأن المقصود به نوح وإبراهيم ومن عاصرهما من الرسل. قال الحريرى فى درة الغواص.

يقال : شفعت الرسول بآخر، أى جعلتهما اثنين . فإذا بعثت بالثلاث فوجه الكلام أن يقال : عزّزت بثالث ، أى قويت كما قال تعالى (فعززنا بثالث) يس ١٤ فإن واترت الرسل فالأحسن أن يقال قفّيت بالرسل كما قال تعالى (ثم قفينا على آثارهم برسلنا) انتهى.

(ثم قفينا بعيسى ابن مريم) أى أرسلنا رسولا بعد رسول حتى انتهى إلى عيسى ابن مريم، فأول أنبياء بنى إسرائيل موسى وآخرهم عيسى.

(وآتيناه الإنجيل) دفعة واحدة لا منجما كما نزل القرآن ، وجعلنا فى قلوب المؤمنين بعيسى رأفة وهى اللين « ورحمة » وهى الشفقة فقد كانوا فى رقة شديدة على من كان يتصل بهم، وشفقة على من لم يتصل بهم، ولذلك عطف رحمة على رأفة، لإفادة التباين والتغاير بين معنى الكلمتين ، وقد كان صحابة رسول الله «صلى الله عليه وسلم» رحماء بينهم : أذلة على المؤمنين مع أن قلوبهم غاية فى الصلابة فهم أعزة على الكافرين.

قيل : أمروا فى الأنجيل بالصفح والإعراض عن أذى الناس ومعاقبتهم ، بل كانوا يعفون عن من أساء إليهم.

واتبعوا عيسى عليه السلام رهبانية، حملوا أنفسهم على العمل بها دون أن يفرضها عليهم كتاب أو رسول ، والرهبانية: المبالغة فى العبادة بمواصلة الصوم، ولبس المسوح، وترك أكل اللحم، والامتناع عن المطعم والمشرب والملبس والنكاح وتعبدوا فى الصلوات والأماكن المنقطعة عن الناس.

وسبب ابتداعهم لهذه الرهبانية ، أن الجبابرة ظهروا على المؤمنين بعد رفع عيسى ، فقاتلوا ثلاث مرات ، فقتلوا حتى لم يبق منهم إلا قليل، فخافوا أن يفتتنوا فى دينهم فاختاروا الرهبانية فى قمم الجبال، فارين بدينهم ، متوفرين للعبادة، منتظرين البعثة النبوية التى وعدها لهم عيسى عليه السلام كما قال تعالى : ﴿ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد﴾ الصف ٦.

(ما كتبناها عليهم) أى ما فرضنا عليهم تلك الرهباية فى كتابهم ، ولا على لسان رسولهم، لكن ابتدعوها طلبا لرضا الله سبحانه، إلا أنهم لم يصبروا عليها ، فأكلوا لحم الخنزير ، وشربوا الخمور، ودخلوا أماكن الفسق فرجعوا عن رهبانيتهم ، ودخلوا فى دين ملوكهم ، ولم يبق على دين عيسى عليه السلام إلا قليل منهم ذمّهم الله بذلك (فآتينا الذين آمنوا منهم أجرهم) أى الذين آمنوا إيمانا صحيحا وهو الإيمان بمحمد عليه السلام بعد رهبانيتهم كما جاء فى الإنجيل مبشراً برسالة محمد، وليس مجرد الرهبانية . فإنها بعد البعثة المحمدية لغو محض وكفر بحت، فلا يؤجرون عليها، أما المؤمنون إيماناً عميقاً صادقاً فلهم أجرهم من رضا الله، أما الكثرة الغالبة من المبتدعين للرهبانية الذين كفروا بمحمد فهم فاسقون خارجون عن حد الاتباع ، فمنهم من تهّود ومنهم من بقى على نصرانيته ، فلم تشمله رحمة الإسلام ولا سماحة الدين الجديد.

﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٢٨) ﴾ « يا أيها الذين آمنوا بالرسل المتقدمة على الرسول محمد «صلى الله عليه وسلم» اتقوا الله » فيما نهاكم عنه وآمنوا برسوله محمد ، إذ لا يذهب الوهم إلى غيره من الرسل ، وإنما أطلق لأنه العلم الفرد بين الرسل قاطبة.

(يؤتكم كفلين) أى نصيبين وأجرين .، المذكورين بقوله تعالى :

(ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة)

وهذان النصيبان من رحمة الله تعالى ، وذلك لإيمانكم بالرسول عليه السلام وبمن قبله من الرسل ، ولكن لا على أن شريعتهم باقية بعد البعثة، بل على أنها كانت حقا قبل النسخ.

(ويجعل لكم نورا تمشون به) يوم القيامة ، وهو الضياء الذى يمشون به على الصراط إلى أن يصلوا إلى الجنة، فجهنم قد خلقت من الظلمة، إذ هى صورة النفس الأمارة وهى ظلمانية. ونور الإيمان ونور التقوى يدفعها ويزيلها.

(ويغفر لكم) ما أسلفتم من الكفر والمعاصى إذا تركتم الكفر ونبذتم المعاصى أما حسنات الكفار فمقبولة بعد إسلامهم.

(والله غفور رحيم) كثير المغفرة كثير الرحمة.

فالنداء فى قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا) للتنبيه لهم بيا المستعملة فى نداء البعد المكانى ولكنه نزل بُعد مكانهم فاستعمل « يا » بدلا من « الهمزة » التى تستعمل فى نداء القريب .

(واتقوا الله وآمنوا برسوله) الأمر هنا خرج عن مقتضى الظاهر، لأن المراد بالأمر هنا الحث على التقوى والإيمان والترغيب فيهما والتمسك بهما والدوام عليهما.

ثم أغراهم بأن يكون لهم نصيبان ، نصيب فى الدنيا ونصيب فى الآخرة، زيادة ومبالغة فى حثهم على الإيمان والتقوى، والنفس البشرية تميل وتنجذب نحو الإغراء والثواب مهما كانت خالصة لوجهه الكريم.

(ويجعل لكم نورا تمشون به) حيث يمتلئ طريقهم نورا ، وتزول عنهم الظلمة والوحشة والخوف والاضطراب ، وغير ذلك مما يعتمل فى صدورهم وهم على الصراط ، إما إلى جنة أو نار، فالضوء المنبعث من النور يزيدهم أمناً وطمأنينة، إلى أن مآلهم الجنة والاستقرار ، وكان من الطبيعى أن تكون خاتمة الآية (والله غفور رحيم) لأن يغفر لكم ، تؤدى لا محالة إلى قوله (والله غفور رحيم) وهو

مايسمى بالأرصاد عند البلاغيين واستعمل صيغة المبالغة ، لتفيد الكثرة فى الغفران والرحمة.

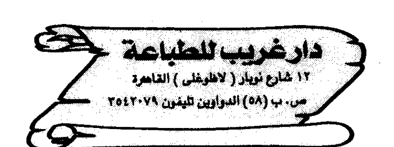
﴿ لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلاَّ يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ (٢٩) ﴾ (لئلا يعلم أهل الكتاب) أى ليعلم أهل الكتاب، فاللام هنا زائدة، أى ليعلموا أنهم لا ينالون شيئا من الفضل والنور والمغفرة، ولايتمكنوا من نيله إلا بالإيمان برسول الله والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، فالله فضله عظيم وثوابه كبير.

روى أن مؤمنى أهل الكتاب افتخروا على سائر المؤمنين بأنهم يؤتون أجرهم مرتين، وادعو الفضل عليهم فنزلت هذه الآية.

فالثواب على الأعمال ليس من جهة ، الاستحقاق ، لأن العبد لا يستحق على مولاه بخدمته أجرا، بل من جهة الفضل ، ولله أن يتفضل على من يشاء ، بما يشاء، ويؤتى كراماته من يشاء من عباده المصطفين ، وهو ذو العطاء فى الأزل إلى الأبد، والفضل العظيم هو الذى لا ينقطع عن المنعم إليه أبدا.

وتكرار كلمة الفضل فى الآية ثلاث مرات يوحى بأهميتها ، وأن فضل الله معروف لعباده ، إذ جاء معرّفا فى كل مرة، فالله فضل واسع الفضل فى كل جزائه، ولذا ختمت الآية بقوله (والله ذو فضل عظيم).

فهرس الكتاب


دار غريب للطباعة
١٢ شارع نوبار (لاظوغلى) القاهرة
ص.ب (٥٨) الدواوين تليفون ٣٥٤٢٠٧٩